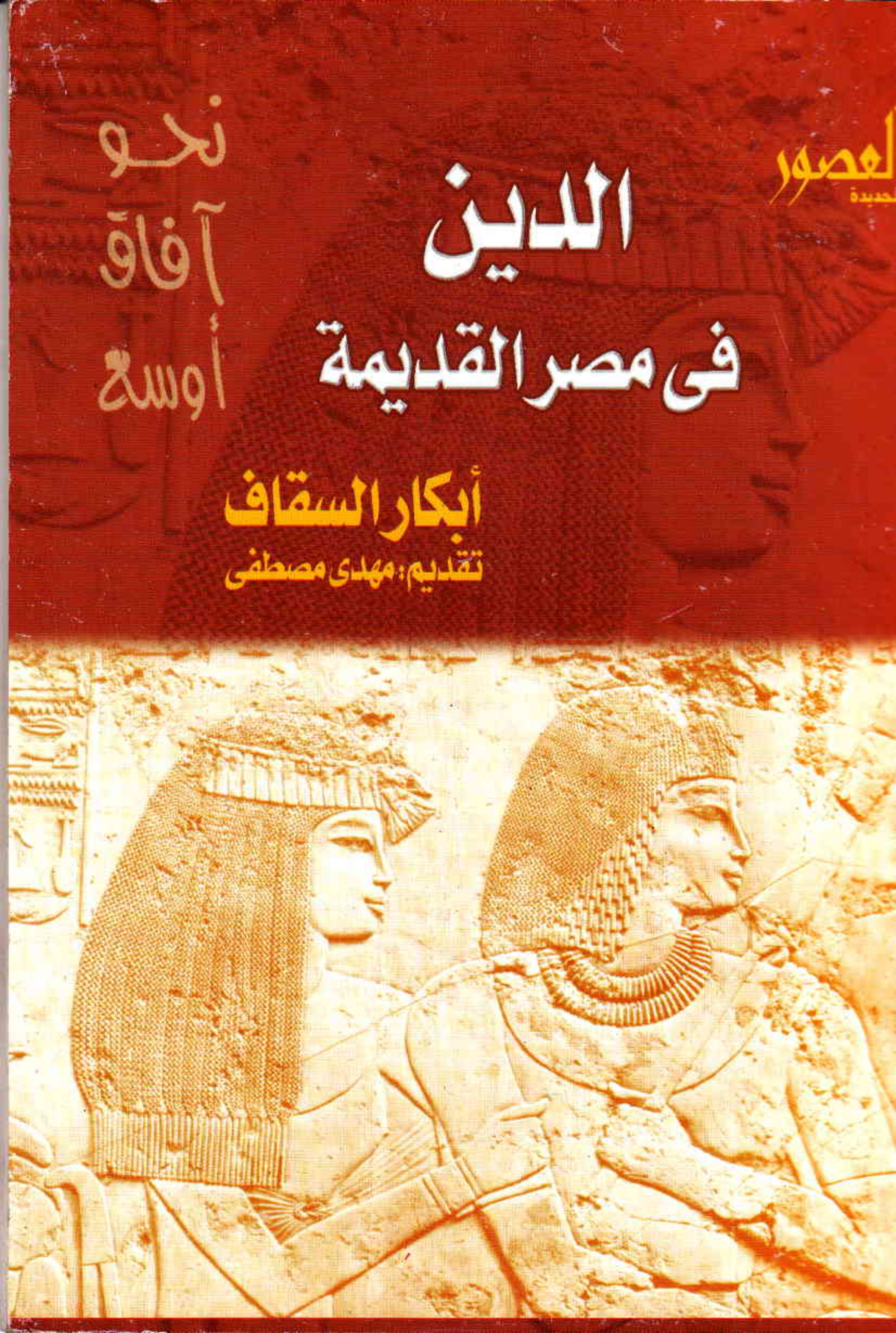

العصور الجديدة
نحو آفاق أوسع
الدين
فى مصر القديمة
أبكار السقاف
تقديم: مهدى مصطفى

نحو آفاق أوسع

(١)

الدين في مصر القديمة

أبكار السقاف

تقديم: مهدي مصطفى

العصور الجديدة

أبكار السقاف خطوة الزمن القادم

تقديم : مهدي مصطفى

تحتاج الثقافة العربية في بداية ألفية جديدة إلى كل حرف أبدعه المثقفون العرب ، فلا يجوز أن يكون هناك فكر محجوب، أيا كانت رؤيته ، وسواء اختلفنا حول ذلك الفكر أم لا ، فالإبداع الإنساني - وإن شطح - لا يخيف إلا أولئك المزعزعين مما يعتقدون أو يؤمنون به.

من ثمَّ يجيء نشر كتابات أبكار السقاف (١٩١٣ - ١٩٨٩) جزءًا من هذه الرؤية ، التي ترى أن الحوار الخلاق - بين الأفكار - هو الذي يضخ دماءً جديدة في شرايين الثقافة العربية.

I

فقد ازدهرت في أوائل القرن العشرين الماضي حركات سياسية وثقافية متعددة لإعادة قراءة التراث لتكوين وجهة نظر مختلفة عن السائدة فيه، خاصة بعد فك رموز الحضارات القديمة ومعرفة لغاتها وأصولها وتاريخها.

وكان لثقافة الغزو والاحتكاك العنيف بالقوى المهيمنة على البلاد العربية أن تحركت ذاكرة النخبة الثقافية والسياسية معًا في البحث عن ماهية الماضي لمقاومة هذا الغزو، فتهجّنت الثقافة بعقل جديد ومتحرر جعل البحث في العقائد والأفكار القديمة الراسخة جزءًا أصيلاً من حركة التنوير والتقدم.

وبسبب حداثة تلك الأفكار وقعت النخبة تحت سيطرة مفاهيم الآخر، خاصة بعد ذيوع وانتشار مدارس التنوير الأوروبية ، فما كان من تلك النخبة - في البداية - إلا أن قلّدت المناهج الأوروبية وأخذت عنها، فجاءت بعض أفكارها مشوشة وتابعة، إلا القليل النادر منها الذي نجا من تلك المحرقة وظل «مسكوتًا عنه» ولم ينتشر ولم يدخل في النسغ العام.

وبين مدرسة الاحتكاك بالآخر والصدام معه تولدت مدرسة فكرية مختلفة عنهما راهنت على الغائب بين السطور وحاولت قراءته قراءة حرة وتوافرت لها الأدوات الروحية والإرادة الثقافية بعيدًا عن الوقوع في فخاخ الطرفين، مع الإفادة منهما إفادة عظيمة، فقد كانت هناك كتابات عبّدت الطريق أمام تلك المدرسة، الغائبة مثل «في الشعر الجاهلي» لـ طه حسين، و«الإسلام وأصول الحكم» لـ عليّ عبدالرازق و«المرأة الجديدة» لـ قاسم

أمين، ومحاورات محمد عبده وريينان وغيرها. وقد تصاعدت حركات التحرر الوطني بكل أشكالها وتجلى ذلك في ثورة ١٩١٩، التي قُمعتْ فيما بعد كما قُمعتْ تلك الأفكار التي رافقتها من النخب المُخْتَلِفة معها من الفريق الصدامي، الذي يرى الماضي ثابتًا ومستمرًا ولا يعتريه التغيير، فكان الصراع بينهما محتدمًا بين التكفير والتكفير المضاد.

وفي خضم هذا الصراع غابت مدرسة بالكامل لأنها لم تشتبك مع الواقع السياسي السائد آنذاك كما فعلت المدرستان الآخريان اللتان انتشرتا وظلتا إلى الآن هما المحركتان للواقع الثقافي والسياسي، وهي ثنائية عجيبة نراها في المعارك السياسية والثقافية الدائرة إلى الآن بين الفريقين نفسيهما.

أما الفريق الآخر فقد ظل بعيدًا عن مستهلكي الثقافة والسياسة بطريقة غامضة لأن فريق التنوير الأقرب إلى أوروبا، طه حسين، وقاسم أمين ، وسلامة موسى ، ولطفي السيد وغيرهم، وجد من يدافع عنه وينشر أفكاره ويستخدمه سياسيًا أحيانًا، وكذلك الفريق الآخر، فريق الماضي الثابت المستمر، وجد من يدافع عنه هو أيضًا من العامة والخاصة، وظل الخلاف وبقي خلافًا سياسيًا محضًا مما عجّل بذيوع أفكار الفريقين معًا، وبينهما ضاعت ثورة عقلية كاملة.

وهو المعنى العميق الذي وضعت أبكار السقاف يدها عليه وهي تنشئ كتابها العمدة «نحو آفاق أوسع - العقل الإنساني في مراحله التطورية» بقولها : «إلى الشمس، ودينيًا، تحوّل الوادي فتحوّل سياسيًا إلى عين شمس». فالمعارك السياسية العامة والتبعية الذهنية غيبتا أفكار أصحاب هذا الفريق الذي تنتمي إليه أبكار السقاف، وإسماعيل مظهر وغيرهما .

وظهور كتابات أبكار السقاف الآن يعني أننا نحاول استعادة هذه المدرسة الغائبة، فلم تشأ الألفية الثانية أن تنتهي دون صعود نجم أبكار السقاف، ووضعها في مكانها اللائق، الذي تستحق، فلم يسمع عنها القارئ العام أو الخاص كما يعرف ويقرأ عن سيزا نبراوي، مي زيادة، صفية زغلول، باحثة البادية، عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ»، أو حتى نازك الملائكة ولطيفة الزيات، ونوال السعداوي وغيرهنّ مع أنها هي الوحيدة التي تستحق أن تكون قائدة لهؤلاء جميعًا، بل إنها تتقدم بخطوات كبيرة وواسعة عن أفكار المثقفين من الرجال، بمن فيهم طه حسين وقاسم أمين ومحمد عبده!

•

وهو ما يوضح مدى أثر الفكر السياسي دون الفكر الثقافي، صاحب التغيير الحقيقي في التاريخ البشري. والعامة والخاصة لايزالان يعرفان هؤلاء المثقفين لاستخدامهم السياسة

إلى أبعد مدى عبر الأحزاب والنخب والجمعيات، فغابت أمثال أبكار السقاف.

ونحن إذ نقدم كتابها «نحو آفاق أوسع ـ العقل الإنساني في مراحله التطورية»، إنما نقدم فكرًا ظل غائبًا عن المثقف العام والخاص معًا، وإن كان قد أثّر تأثيرًا عميقًا في مثقفين حازوا جائزة نوبل، كما حاز آخرون على صك التنوير دون أن يهمسوا حتى لأنفسهم عن أبكار السقاف.

والعجيب أن أبكار السقاف – التي نضجت تمامًا في أربعينيات القرن الماضي مع نضج العقل المصري والعربي – غابت بالرغم من حفظ التاريخ لكل الحركات السرية والثقافية وغير الثقافية، حتى الهامشي منها مثل جماعتي «الخبز والحرية»، و«الفن والحرية» والجماعات الأخرى الأقل شأنًا، وهو موقف لايزال غامضًا تجاه مفكّرة في حجم أبكار، وإن كان عدم مشاركتها في أي من التيارات السياسية قد يكون السبب الرئيسي لهذا الغياب برغم احتكاكها بالمثقفين الأعلام بدءًا من العقاد حتى صلاح عبد الصبور مرورًا بمحمد الصاوي محمد ونجيب محفوظ وغيرهم! وقد يكون السبب الآخر هو ما حدث في

الخمسينيات وما بعدها مما أكد غياب هذا النوع من التفكير واندماج الفريقين الآخرين ضمن السلطة الجديدة –سلطة يوليو.

على أية حال هاهي أبكار السقاف تُقدّم للقارئ العربي لعل عودة أفكارها إلى الضوء تستطيع أن تسد فواصل التاريخ العربي والثقافي منه، تحديداً «المسكوت عنه» ونقول معها :

«هذا هو الغد قد أتى».

II

إذن انتهى القرن العشرون واستقبلنا قرناً جديداً، محفوفاً بثورة أخرى، لا تشابه الثورات السابقة، هي ثورة الاتصالات التي جعلت الكوكب الأرضي قرية صغيرة، أو بقعة ضوء صغيرة داخل إطار من الهيولى، ومن هنا سنكتشف عوالم أخرى ـ تتقارب أو تتناصّ مع الأرض، وطوال عمر البشرية والاكتشافات لا تنتهي ـ خارج الإنسان ـ وقد ظل عالم الداخل محاطاً بالإبهام والغموض، وعلى جسد الزمن، تفجرت دماء لتروي الأرض لتصبح ـ فيما بعد ـ نقطة ضوء تتراكم عبر الزمان والمكان ـ لتشكل بقعة أكبر. وهكذا يعود الزمن الغابر قادماً من المستقبل أو العكس ـ والمكان البائد يتحوّل إلى مكان المستقبل، فليس

هناك مكان ثابت أو زمان ثابت ـ لكنّ هناك اختلاطًا بين الزمان والمكان، بين الأجساد والأرواح بين العقل والرؤيا.

وإذا ما نظرنا ـ بعمق ـ حولنا لوجدنا غليان الكوكب الأرضي بثورات ونزعات محورها الجغرافيا ، والعقائد المخزنة تحت الجلد، أو بالأحرى السابحة في الدماء ـ والتي لم يروضها العقل بعد ـ ذلك العقل الذي ما إن يحاول أن يفكر حتى يتهم بالمروق والتمرد والإلحاد، ومن ثم الاستشهاد، في حروب عبثيّة من هذا النوع، وما الحروب الدينية، التي دارت رحاها نهاية القرن العشرين الآفل في أماكن عديدة من العالم، إلا نقصًا في التفكير وعجزًا عن الإدراك ، بوحدة الوجود والعنصر.

وبرغم الثورات العلمية المتعددة والإنجازات المكتشفة، إلا أننا أمام ظواهر محيرة ألا وهي ظواهر الخرافة ، التي تكاد تكون شبيهة بالعقائد، التي سرعان ما تتحول إلى عنصرية مكانية أو عنصرية دينية، وبالتالي تصبح بديلاً عن التقدم العقلي والروحي وتتمحور عناصر الموت والتدمير والخراب ضد بقعة الضوء التي هي الإنسان: الضوء الإلهي.

من هنا تأتي كتابات أبكار السقاف مجترحة طريقًا ضُلّ

طويلاً، طريقًا ما يكاد يبدأ حتى يضيع، ألا وهو طريق العقل الواحد والمتعدد في آن، طريق الحرية الإنسانية والعدالة الاجتماعية التي - من خلالها - يتفجر العقل بمعنى حرية الفكر والإنسان.

ومنذ الثورات العلمية، واكتشاف أن الكون صيغة رياضية هندسية، أو أن الكون هيكل رياضي البناء، والعقل الإنساني لا يتوقف عن البحث عن «نبع الوجود» في صيغ متعددة، صيغ قد تتخذ شكل المعتقدات أو الأديان الروحية أو العلم الحديث، كل هذه الصيغ تصب في مجرى البحث عن معنى الوجود، وإن تخفّى البحث في بعض الأحيان تحت شعارات زائفة أو شعارات تكفيرية أو عنصرية، إلا أنه سرعان ما يقوم مرة أخرى وينفجر، بحثًا عن كينونة أو ألوهة الإنسان - الإنسان الكامل كما وصفه أو أراده «الجيلي» أو كما فجره صاحبنا «الحلاج» في النفس البشرية أو بالأحرى كما اكتشفها.

والسؤال الآن هو كيف غابت أبكار السقاف عن تأسيس العقل العربي والإنساني كل هذه الأعوام؟ فقد كانت هي الأجدر بأن تكون إحدى الأوتاد القوية في العقل العربي، لأنه مفكرة من

طراز فريد، وهذا الكتاب - الذي بين أيدينا الآن - يكشف الالتماعات الروحية والعقلية لهذه المفكرة الكبيرة التي تنتمي كتاباتها إلى سلالة ابن عربي، وابن رشد، والفارابي، وسليم حسن، ومحرم كمال، والحلاج، والجيلي، والمعرّي، والخيام، وجواد عليّ، وأدونيس، فهؤلاء ظلوا المصابيح المضيئة ، في ظلام التاريخ العربي القاسي .

لكن كيف غابت أبكار ؟!

فهي أولا أبدعت وسط ظهرانينا كتاباتها التقدمية والحداثية في الآن نفسه، ولم يتنبّه لها أحد - كما ينبغي - وهي أولى الخطوات في البحث عن الإنسان - عبر العقائد والأساطير والأديان والعلم الحديث - وتكاد تكون «أبكار» «المثقف الوحيد» الذي يربط بين الروح الدينية والعلم في أواسط القرن العرشين الماضي، وعبر كتاباتها الغزيرة التي انتشرت «من قِبل آخرين فيما بعد»، لكن دون تعمّق - أدركت أن الدائرة - أكمل الأشكال الهندسية - هي محور الإنسان - المغترب عن ضوئه والمقترب من اغترابه والذي يحاول أن يعود إلى «نبع الوجود» فهناك تعطش لهذا النبع - وبين الابتعاد والاقتراب كانت تبذل دماء،

وتقوم حروب وتهدم أماكن وتضيع أزمنة، إلا أنها تدور الدائرة نفسها.

ومن هنا جاءت أبكار السقاف عبر رؤية ورؤيا لتجترح ذاكرة المستقبل، وبين الماضي والمستقبل تخص الحاضر بأبدع التوصيفات الإنسانية، برغم أنها متعددة التفكير والتناول: إلا أنها لا تحيد عن فكرتها الأساسية، وهي البحث عن الإنسان أو البحث عن الله في الإنسان.

III

نادرًا ما يربط مفكرٌ ما العلم الحديث بكل تقنياته بالفكر الروحي أو الاعتقادي، مثلما فعلت أبكار السقاف - التي ما إن يطلع القراء على كتاباتها حتى يقفوا مشدوهين من تجاهل وغياب هذه العقلية عن وجداننا الجمعي، إلا أن القرن الحادي والعشرين أبى أن يأتي دون أن تقوم مرة أخرى من بين الأموات - إنها لن تموت أبدًا.

و«أبكار السقاف» لها كتاب «نحو آفاق أوسع» في أجزائه الثلاثة، والذي صودر عام ١٩٦٢ لجرأته العقلية والعلمية، وكتاب «إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة» الذي طبع عامي ١٩٦٥، ١٩٩٧ وغيرهما ظلت كتاباتها مطمورة كالكنوز تحت ركام النسيان والتجاهل، إلا أن شقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» ظلت

حارسة لهذا الكنز محافظة عليه، حتى يخرج إلى النور ، كما أرادت له صاحبته، وكما تمنت أن يكون بستانًا عظيمًا يقطف منه العقل الإنساني. وسيذهل العقل العربي عندما يطلع على كتابات هذه السيدة «المنسية» وسيشعر بتأنيب الضمير لأنه أغفل أو تغافل عن مثقف عضوي حقيقي استطاع عبر آلاف الصفحات أن يسطر أروع ما خلفته الروح الإنسانية مستخلصًا الطريق إلى «معنى الوجود» دون الوقوع في مصائد الجغرافية أو الزمنية، عبر مسيرة الإنسان ككل، وإن اتخذت جغرافية أفكارها هذه البقعة من الأرض المشحونة بالعقائد والأفكار والأديان لتربط الإنسان بنفسه أو الله بذاته.

وأخيرًا إننا بنشرنا كتابات أبكار السقاف نحاول أن نطرح أفكارها كما هي، حيث حرية الإنسان والبحث عن العقل في عالم متماوج ومتغير، في عالم تحده أمراض التكفير والقتل المجاني والموت العبثي، وإننا سنوالي نشر أعمال «أبكار السقاف» حتى تكون للقرن الحادي والعشرين بداية مشرقة، وحتى تكون الأرض محروثة وممهدة أمام القادمين، ولنجرّأ الآتين على استخدام حقوقهم في الحرية الإنسانية، ونرفض ما يغلهم ويقيّدهم أيًا كان .

القاهرة في ٢٦ / ١ / ٢٠٠٠

قـارئي

إن هذا الكتـاب مـجـهـود فرد ، ومـجـهـود الـفـرد أبدًا إلى الكمال في حاجة ما بلغ الكمال في الكون شيء فكل شيء نحو الكمال يهدف، في كون نفسه ، نحو الكمال هادف.

مثلنا في الحياة كمثل سائر نحو أُفق ، يظنه النهاية، وقط لن ينتـهي إلى النهاية ، فليست هناك نهاية تُبْلَغْ فإنَّ هو إلاّ أفق يَنْحسر عن أفقٍ ، وإن هـي إلا آفاق تْطوى فتنتشر بطيّها آفـاق ، وأبدًا منها في اتساع تتسع الآفاق .

مِن صُوَر الكمـال "المعـرفـةُ" صـورة نحـوها هـادفًا اتّـجـه الإنسان مذ أشرق على صـفـحة الوجود له وجـود حَفَر اتجاهه نحوها ، على رمال الزمن، خِطَى امتدت إلى خطوات وخطوات... إلى ما قد ظنه الهدف سـار فأدركَ، ولكن لِيدْرك أنه لم يُدْرِك ما قد ابتغى له إدراكًا ، فما أشرَف على أفقٍ إلاّ واسْتشرف آفاقًا أبدًا في اتساع تتسع منها الأرجاء ...

لهذه الخطى مُتعقبًا ، اتَبَع الفكر محَاوِلاً تَقَصي ما قد تركه العقل الإنسانيُّ ، بها ، على بَيْداء الوجود من أثر هدفه فيها كان ، مذ أشرقت به الحياة وانبثق فيه العقل ، المعرفة .

والعقل ؟

سِفرٌ العقل ؟

سِفـرٌ ، سـجَّلَ لـلإنسـانيـة تاريخًا تـاريخـه قِصَّة التطور، فـتـاريخـه التـاريخ مـذ صـعـدت به حلقـات التطور من الحـيـوان إنسـانًا وبه هبطت من سـلاَسِلَ الجبـال إلى الأودية الكبْرى، ومنْ الهمجية إلى المدنية تمر بها عبر عصور التحضُّر فيسجِّل خطاه نحو الطبيعة وما بعد الطبيعة والدين ...

فما الوجود ؟ ..

وما الألوهية ؟ ..

بل ما الصرح الذى قام على الوجود والألوهية... ما الدين؟

كلا ! ...

بل ما تاريخ الإنسان ، ونفس الإنسان ، وعقل الإنسان .

أبكار السقاف

تمهيد

الدين عقيدة صاحبت عقيدة الألوهية . ولو سألنا كيف نشأ الدين؟ فالجواب : « نشأة فكرة الألوهية » فإنما حول الصلة بين المُؤَلَّه، والمؤلِّه، والمعبود والعابد يقوم الدين :

على أسس التفكير الإلهي أو بالأحرى التفكير فيما بعد الطبيعة القائم بدوره على أسس التفكير فى الطبيعة أو الوجود ، قام الدين .. وتطوُّر الفكرة والعقيدة فيما بعد الطبيعة ، تبعاً لذلك، وارتقى فى النفس البشرية .. الدين !!

ومن ثمَّ فلدراستنا الدين يتحتم أن ندرس على أسس سليمة من قواعد العلم : علم الحياة وعلم الأجناس وعلم النفس، وتاريخ النفس البشرية في تاريخ العقل البشري . فتحت أضواء هذه العلوم يتجلَّى العقل الإنساني في البشرية كالعقل من الإنسان به ترتحل مراحل العمر التطوريّ مراحلها الطبيعية الارتقائية . بل ماثَلَ العقلُ البشري العقلَ من البشر . فبخطواته سار العقل البشري بالأمم كما يسير بخطواته في الأفراد ، وتتحكم في تفكيره لهذه المراحل أطوار .

وليدًا ؛

بمرحلة الطفولة مرَّ ، فطبعته هذه المرحلة بطابعها ، والسذاجة لهذه المرحلة طبيعة وطابع ! طبعته السذاجة بطابعها ، فطبعته طبيعة سرعة التصديق واعتناق الأوهام عقائد والتشبث بها ، والإيقان بأنها من الحق الحق - هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور الهمجية والوحدات القَبَلِيَّة وانتشار البُدَائي من الأديان ..

ويافعًا ؛

بمرحلة الصّبا مَرَّ ، فمرَّ بطور فارقته فيه سجية سرعة التصديق... فتمرَّد، وفيما قد صدّق وليدًا أحدقت منه الشكوك !. هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور الحضارة وسيادة الأقاليم وانتشار الشكّ والتحرّي ونسخ قديم بجديد ، جديده القديم فى صورة التجديد فمن نفس مادة الأساس قام جديد أديان ...

ومتفتحًا ؛

بمرحلة الشباب مرَّ ، فأحاط بالحواس وبالعاطفة منه لهيبُ هذه المرحلة من العمر ! ومن ثمَّ ازداد إيمانه بأنه كان على حق فيما قد شك .. فاحتفظ من القديم بما رآه نافعًا .. وأتى بجديد من قديم بصحته آمن كل الإيمان .. وضنينًا بما جاء ، جاء يُسيِّج عقائده بالقدسية ، ويَحُفُّ ما قد سطّر من نصوص

بحفيف الوحي المنزَّل ، ويفرض أوامره فرائض - هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور الوحدات السياسية وقيام رسميٍّ الأديان.

وناضجًا ؛

بمرحلة التجربة مَرَّ ، فأضفت عليه هذه المرحلة من العمر مهابةً وهيبة .. ومن ثم فالمرحلة مرحلة الرزانة والتؤدَة والتعقل والعصر عصر العقل والحكمة ، والفترة فترة هدأةٍ استغرقها استعراض الماضي واستشفاف المستقبل .. استعراض كبوات الطفولة ، وعثرات الصبا وحميَّة وتمرُّد وجموح الشباب - هذا هو الطور الذي يستجيب لقيام المدنيات وإشراق الفلسفات .

وواهنًا ؛

بمرحلة الإخلاد إلى السكينة مرَّ ... فاكتنفته شيات هذه المرحلة من العمر ومن ثمَّ قَصرت مطالبه على التماس الراحة - هذا هو الطور الذي يستجيب لعصور شاهدت نهاية عهود سياسية ، وبدء عهود سياسية أخرى ، ومغيب الفلسفات .. في ضوء غارب الفلسفات واهنًا اختار العقل ما قد أتى به من فِكر فلسفات وعقائد أديان . . ومن ثمَّ فالطور طور مـزْج الأديان بالعقليات ومحاولة التوفيق بين القديم من الأديان والحديث من الفكر بالتطبيق والشرح والتعليق وتحميل قديم النصوص بجديد معان ، وابتداع بدعة التأويل وسيادة الدين الرسمي!

كل هذه المراحل التطورية الطبيعية تحكَّمت في تفكير العقل الإنساني وحتَّمت نظرياته في الطبيعة وما بعد الطبيعة التي يقوم عليها الدين ..

ولما كان موضوعنا الدين فإننا لا نستطيع إلا أن نمر مرورًا سريعًا على أهمِّ الفروع التي تحدَّر عبرها ، من هذين المصدرين ، الدين ، وأولهما ؛

الطبيعة ؛

الطبيعة أو الوجود ، مشكلة لحلها وَجدَ العقل الإنساني نفسه متجهًا عَبْرَ مراحل حياته التطورية . فأتى بعد حلول بحلول أوجدت بدورها ، فى دائرة الطبيعة ، مشاكل ، فقد تدفقت هذه الحلول عبر الينابيع الثلاثة المنبجسة في تربة النفس البشرية ؛

الينبوع العاطفي

الينبوع العقلي

الينبوع النفسي

عَبْرَ هذه الينابيع المختلفة والمتباينة الألوان تغيَّرت ومازالت تتغيرالنظرة إلى الطبيعة أو الوجود . فعبر هذه الينابيع تتحدَّر عن الطبيعة عقائد متباينة مختلفة ، فإن :

عبر الينبوع العاطفيِّ ، تتحدَّر : عقيدة الخلق .

وعبر الينبوع العقلي ؛ تتحدَّر : عقيدة الأزليَّة

وعبر الينبوع النفسيّ ؛ والعـقل في تمام نضـوجـه يصغي إلى صوت النفس ويرجع أصداء هذا الصوت الآتي إليه صافيًا مدويًا بالحب . حب يشمل الوجود بموجوداته ويجترف السكون بكائناته ومكوناته ... حب ، في غمرته يتبدَّى الوجود فيضًا من الحب - الحب الخليّ من غاية - الحب الخليّ إلاَّ من الحب ! ..

عبر هذا الينبوع يتجلَّى الوجود غيره في الينبوع العاطفي فليست هناك وراءه غاية قد أوجدته ، وليس هناك عدم منه قد خلق . فخلقًا لم يخلق وإنما هو من الحب قد صدر وفيض هو من فيض الحب - هذا هو الينبوع الذي تتحدَّر عبره العقيدة الصوفية : « عقيدة الصدور أو الفيض » .

على هذه الأسس في التفكير في الطبيعة واختلاف الفكرة عنها والعقيدة، يقوم التفكير الإلهي، وبالتالى العقيدة في ألوهية، ويتَّخذ عبر هذه الينابيع الثلاثة مظاهر ثلاثة:

عبر الينبوع العاطفي يتجلَّى : المظهر الاجتماعي أو التأليه البدائي

« عبر الينبوع العقلي : يتجلى المظهر الفلسفي أو التأليه العقلي

« عبر الينبوع النفسي : يتجلى المظهر الروحي أوالتأليه الصوفي

من الينبوع العاطفي نقترب فيطالعنا :

التفكير الإلهي تحت المظهر الاجتماعي

التفكير الإلهي ، تحت هذا المظهر ، يصطبغ بصبغة التأليه البدائي .. في هذا الدور الذي بدأت تتجمَّع فيه الأقاليم تحت سيادة إقليم واحد يربط بينها بوحدة سياسية ، وُحِّدَت الآحاد في واحد بإفناء أرباب الأقاليم المسُودة في رب الإقليم السائد عن طريق إدماج في الصفات ... ومن ثمَّ جرت العقيدة الإلهية التي تدفقت من الينبوع العاطفي إلى مصب خالص الوحدانية ، ولكنها وحدانية مادية خشنة وجافَّة كل الجفاف ، فإنه تحت هذا المظهر تتجلّى فكرة الألوهية ؛ فكرة اجتماعية ... تتغير بتغير المجتمع وتتشكَّل بتشكل البيئة والعصر .

تحت هذا المظهر ، وفي هذا الدور من التطوّر العقلي والعقل الإنساني يجتاز أطوار الحداثة والزمن به ينسلخ من دور الهمجية إلى دور التحضر والحضارة ، صُورت الألوهية بصورة مادية فطرية بدائية !

تحت هذا المظهر صُبغت الألوهية بالعنصرية ، وحصرتها «المكانية» فى سماء ، وقيَّدتها « الجسمانية » فى جسم .

تحت هذا المظهر أُدَّعي للإله على الجبال تجلٍ ، ورؤية وكلام !

تحت هذا المظهر ، والعروش الأرضية على الأرض تقام ، أقيم للإله عرشٌ فى السماء !

وبينما الزمن بالفكر الإنساني ينسلخ من دور التحضُّر إلى دور المدنية ، ويدفعه إلى طور التجربة ، فيتنبَّه إلى المادية التي كان فيها يتمرَّغ يهبّ تأثرًا على ما قد صورته من المخيلة في حداثته من صور وما قد حفَّ بهذه الصورة من عقائد .. فينطلق مفكرًا يُفكّر .. ونزَّاعًا إلى المجرّدات ينزع عن الألوهية الصبغة التي صبغها بها في حداثته ، والتي اعتنقها - دينًا - العقلُ الجماعي ويأتي بتفكير جديد يرميه العقل الجماعي بالباطل ، ويتهمه الدين الرسمي ، المُجمعة عليه الجماعات ، بالحيدة والزيغ والمروق عن موروث دين الآباء ، فلقد سجَّل العقل الإنساني ناضجًا ؛

التفكير الإلهي تحت المظهر الفلسفي

التفكير الإلهي تحت هذا المظهر يصطبغ بصبغة التجريد ، وفي هذا الطور من التطوُّر الارتقائي، لا يعتمد إلا على نفسه ! .. لا يعتمد على نصّ ولا على نقل .. حسبه تفكيره لذاته ، وتعقله بذاته لذاته .. حسبه أن يُفكِّر لنفسه .. فإن التطور الطبيعي لسنة النشوء والارتقاء قد طفر به فكرًا يستنتج ويُدَلل ويُعِّلل ويُبرهن ويدفعه متسائلاً فمنتزعًا البراهين على وجود إله ... وبعد انتزاع البراهين يجادل « الصفات » ويناقش «الصلة» ويأتي بحلول للمشاكل الرئيسية الثلاث التي يشتمل عليها التفكير الإلهي تحت هذا المظهر ؛

الإثـبات : إثبات وجود إلَه

الصفات : الصفات التي تتفق والألوهية

الصلـــة : الصلة بين الإله والوجود

لقد انتهى العقل بالبرهان على « وجود موجود مُطلَق » – مبدأ أول هو العلّة لكل ما هو موجود ؛ ثابت ، ومستغنٍ ... وقام العقل يُقدِّم تلك البراهين التي تنقسم إلى ما اعتمد فيه على العقل اعتمادًا مطلقًا ، وما اعتمد فيه على التجربة الحسيّة واعتمد فيه على العالم الخارجي ، وما استنبطه من العالم الأخلاقي ، فكوَّنت البراهين :

براهين ما بعد الطبيعة

البراهين الطبيعية

البراهين الأخلاقية

وبهذه البراهين بَرهْنَ العقل الإنساني على تجرُّد الألوهية إلاّ من اللامجرَّدات ، فنفيت عن الإله نفيًا ثابتًا العنصرية والمكانية والجسمانية . نفيًا نَفَى التجلِّي والرؤية والمكالمة ، فانتفت تبعًا لذلك النبوَّة والرسالة وبعث رسل وتنزيل نصوص !

أجل ...

إن التطور الارتقائي قد خَلُص بالعقل في بحوثه النظرية إلى الألوهية العقلية ، ومن ثمَّ فاصطباغ التفكير الإلهي ، تحت هذا المظهر ، بصِبغة التأليه العقلي .

إن التأليه العقلي عن علائق الحياة يتجرّد ، وبقدر تجرّده عنها بقدر اتجاهه نحو «الموضوعية » و «العمومية» وبقدر ما يعتلي بالنفس يغدو « مبدأ تأمُّل » ومن ثمَّ فاتجاه العقل الإنساني إلى دراسة الموجود ، من حيث هو ، على صورتيه ؛

الموجود الحسي أو « العالم الخارجي »

الموجود المعنوي أو « العالم الداخلي »

دَرَسَ فوجد أن «الموجود المطْلَق» علَّة وجود العالمين !

بلغ العقل الدرجة القصوى من النموّ النفساني التي تسجَّل له وقوفه فى قمم التفكير الإلهي تحت هذا المظهر . فقد برهن على وجود «الموجود المطلق» كعلَّة لوجود العالمين الحسيّ والمعنوي أو العالم الخارجي والعالم الداخلي أو الطبيعة والعقل؛ ثم طفق يُلقي على براهينه أضواء المنطق متسائلاً عن الصلة : أمستغنٍ « الموجود المطلق » عن كلا العالمين أم أنه فيهما مُؤثر ولهما مبدأ وحدة ؟

ولإدراك « الموجود المطْلَق » طَوى الفكر الإنساني العالم الخارجي عنه باحثًا ، وامتد إلى العالم الداخلي يلج لجَّة النفس متقصيًا ، وبهذا بلغ الدرجة من النمو النفساني التي بها يطالعنا :

التفكير الإلهي تحت المظهر النفسي

العقل الإنساني في هذا الدور قد بلغت به أطوار التجربة أتمَّها ، فهو ، وقد بلغ القمة ، يشرف على آثار خطواته في محاولة بلوغ هذا المشرف ، بينما ينحسر أمامه أفق قد اتسع اتساعًا لم يتسعه أفق من قبل ! ... أفق ، فيه يتلفَّت فيجد في كل متجه امتدادًا ، فالأفق الجديد أفقه آفاق ونهايته اللاانتهاء ! ..

ولكن ! ...

أمام العقل قد انبثق في هذا الأفق ، كنتيجة حتمية لهذا التقصِّي ، تياران متعارضان ينعطف الواحد إلى ناحية في منتهاها يتجلّى الإله ؛ علّة الوجود ومنشؤه المُفارِق والمختلف عنه اختلافًا جوهريًا وغير الخاضع للواقعية التي تسوده ؛ بينما ينعطف الآخر إلى ناحية في منتهاها يتجلّى الإله غير مُفارق للطبيعة أو الوجود ...

وأمام هذين التيارين وقف العقل يتساءل :

أمتعدد الوجود ؛ أم تشمل تعدده وحدة .

سؤال ، بعث بمبدأين مختلفين :

« التعدُّد » أو تعدّد الوجود

« الوحدة » أو وحدة الوجود

أجل .

لقد لجَّ الفكر الإنساني في أغوار النفس .. فتبدى أمامه

معنيان متباينان : في أحدهما يتراءى الوجود هو وحده الحق والإله مجموعة أجزائه ، فسجلٌ :

« وحْدَة الوجود الطبيعية »

وفي الآخــر يتــراءى الإله هو وحـــده الحق ، وبموجوداته الوجود شيء فيه ومنه .... ولكن هذا المبدأ الآخر ، قد تفرَّع إلى فرعين متباينين ، فقد تبدّى الوجود في أحدهما مجموعة لانبثاقات فاضت عن الإله ، فَسَجَّل :

« وحْدَة الوجود النفسية » أو المذهب الوحدي

وفي الفرع الآخر تبدّى الوجود مجموعة مظاهر يبدو فيها الإله بصورة حلولية فسجّل:

« وحدة الوجود الحلولية » أو المذهب الحلولي .

وبالمذهبين ، الوحدي والحلولي ، وفي كلا الفرعين ليس الوجود ، سواء أكان انبثاقات أم مظاهر ، سوى ظلال .. ظلال لحقيقة وليس نفسه قط بحقيقة ، اتجه العقل الإنساني عن الفلسفة العقلية إلى شفافية روحية ، فالعقل ، تحت هذا المظهر من التفكير الإلهي ، وفي هذا الطور من النمو الارتقائي ، قد لج في الأفق الذي تلاشت فيه الفواصل بين المادة والروح تلاشياً شَعَتْ به الروح واطمأنت النفس إلى وجود النفس ! ...

أجل ! ... شعّت الروح في هذا الطور واطمأنت النفس إلى وجود النفس ، فالعقل في هذا الطور من النموّ النفساني قد انطلق فكرًا للوجود بتأمل ، ومتأملاً ، عاد يعلن :

إن الوجود بيداء ! ...

بيداء ، وعليها الحياة تَمرُ مَرَّ الظلال !

ظواهر تتعاقب - صُوَر تصُور وتُمْحَى - مظاهر تظهر لتختفي ، ولا شيء إلا إلى اللاشيئية يصير - لا شيء إلاّ وفي تلاش يتلاشى - لا شيء يُلْمس إلا ويُتَلَمسْ ! ... لا لشيء حقيقة وجودٍ في هذه البيداء التي يحدها ماض ومستقبل وكل سارب كالسراب ... والسراب ؟

وهـم ! ...

ومن ثم فالوجود وجود تصوُّري ، والكون كون وهمي سرابيّ ..

أي شيء من ثمّ ، في هذا الوجود التصوري والكون الوهميّ السرابيّ .. الحقيقة ؟

الجواب ؛ إن الشيء الحقيقي الوحيد في هذا الكون هو ... النفس .. النفس التي أدركت أن الوجود تصوّري ، والكون وهميّ ! ... أن المدُرك للوهم قط ليس بوهم !!!

إن النفس ، قبس من « نفس » ! ... قبس من نفس كبُرى هي ما عنه يبحث العقل ، ويسميها الإله

الإله نفس ، والنفس منه قبس ... ومن ثُمّ فمعرفته ، معرفة الإله ، في النفس كامنة ... ومن هنا كان استغناء العقل عن مناقشة الإثبات والصفات والصلة ، فالعقل يدرك أن الألوهية

شيء متفجر من نفس الينبوع النفسي ... فإن الإله لا يرتكز في إثبات وجوده أو ذاته إلى الفكر، فالإله مثبت وجوده عن طريق الإشراق .

الإله مشرق على النفس لا يحجبه عنها إلا ما يعلق بها من كثافة الماديات وإلا ما يبعدها عنه من موج السراب .. على النفس الدافعة عنها موج السراب والصادفة عن مباذل الدنيويات يتجلّى الإله تجليات فردية خاصة بنورانية تشع داخل النفس ، فتغمرها حالة لا تتماشى ومعروف أساليب العقل .. حالة هي شعور لا يقبل شكًا في أن الإله قد تجلى !

إن الإله لا يتجلى على الجبال ولا يخاطب بكلام ، فهو نفس ، وهو ، والنفس شيء مجرّد ، المجرَّد ، وإنما إلى الإله قد ارتفعت النفس بنفسها وإليه صعدت ، فتجلَّى !

في هذا الدور من النمو النفساني للعقل الإنساني ، ينتفي انتفاءً قاطعًا الوحي الهابط ويُؤكّد الوحي الصاعد ، وبالتالى يحل محل الدين المنزَّل : الدين الفطري.

تحت هذه المظاهر الثلاثة : الاجتماعي والفلسفي والنفسي ، يتجلَّى التفكير الإلهي تجليًا مختلفًا في كل مظهر عن الآخر اختلافًا جوهريًا في الماهية ، وفي الصفات ولا يتّحد إلاَّ في الاسم ذلك أن الإله يتجلى في ضوء المظهر الاجتماعي ، **الخالق** ... الخالق الذى أراد أن يكوّن كونًا من عدم ... فقال للشيء كُن .. فكان ! ...

وفي ضـوء المظهـر العـقلي ؛ المنظّم .. **المنظم** لوجود سرمديّ استمد هذه السرمدية من نفس سرمديته ، فهو العلّة السرمدية لهذا الوجود الموجود بوجوده والحيّ بحياته !

وفي ضـوء المظهـر النفسي ؛ الفـيّاض ... الفياض الذي فاض عنه الوجود عن طريق : «الحب» !

وباختلاف التفكير الإنساني في ضوء هذه المظاهر الثلاثة اختلف أيضًا .. الدين ! ..

فالدين تحت المظهر الاجتماعي : دين مادي عبادته : «الطقوس» . والدين تحت المظهر العقلي : دين عقلي عبادته : «المعرفة» .

والدين تحت المظهـر النفسي : دين روحي عبادته : «**التأمل**».

للفكر الإنساني يُسجل الفكر تاريخًا .. تاريخًا يُسَجِّل لهذه الفكرة التي بُنى عليها الدين تطورًا ارتقائيًا ، فبارتقاء العقل ارتقت النظرة إلى الألوهية ، وبشفافية النفس ازدادت شفافية ... فمن فكرة بدأت بدائية ، وظلت تتطور تبعًا لتطوره إلى عقلية بحتة فإلى شفافية قصوى نراها لم تنته بانتهاء التفكير البدائي بل إنها على النقيض استقرّت في الطوية البشرية كعقيدة تعقّدت بتعقّد الحياة الفكرية فإن بازدياد الفكر تفكيرًا أو بالأصح بازدياد الفكر تطورًا وارتقاءً كانت « الفكرة » من

مشاكله الرئيسية ، فهو إليها أبدًا متجه ونحوها أبدًا منجذب ، وأبدًا يحاول انتزاع البراهين على وجودها كحقيقة سرمدية !

ومن ثم فاستنادًا إلى هذه الحقيقة التي تطالعنا بها مساند التاريخ العقلي ، فإن «الفكرة » ، فكرة الألوهية ، إنما تتجلى فكرة فطرية في النفس وهدفًا ، نحوه وجد العقل الإنساني نفسه منجذبًا .

ونحو هذا الهدف وجد العقل الإنساني نفسه منجذبًا يسعى ويد الزمن تدفعه من الكهف إلى أودية الأنهر الكبرى لتحفر خطاه حضارة بعد حضارة ، ومدنية بعد مدنية محورها هذه الفكرة التي بسببها ، كصلة بين المؤلّه والمؤلِّه أو المعبود والعابد ، قام : الدين !

الدين في مصر القديمة

الدين، في هذا الوادي الذي كوّنته يد الزمن حين ألقت من الصلصال الطمي الذي انداح جنوبًا وشمالاً فانتشر عليها امتزج الواردون من الصحراء الغربية بالمرتحلين من القبائل الرحّل من الصحراء الشرقية بالنازحين من فيافي الجنوب بالقاطنين الوادي منذ كان تاريخه سَحرًا وبهذا المزج طلعت على ضفتيه أمة بها أشرقت في مغرب العصر الحجري الحديث حضارة ضمّت إلى الشمال الجنوب فسجلت وحدة سياسية

ظلت طابع الوادي منذ مشرق تاريخه السياسي حتى الغروب،
رواية !
رواية، منها الفصول مسطّرة على الأطلال -
على أوراق البرديّ - على المداون المنقوشة - على المعابد الإلهية والجنائزية - على صفحات القبور وصفائح الجدران الأربعة من معبد أوناس وهرم سقّارة من الغرفة المغطّاة بنقوش زرقاء، أقدم النصوص الدينية في مصر التي تعرف بنصوص أو «متون الأهرام» - من النصوص المقدّسة والقصص الدينية - ومن آيات «كتاب الموتى» المكتوبة على الأكفان.

من هذه الأسناد التاريخية، أقوى الأسناد وأصدقها، يستقي القلم وعليها يستند، وموادها ومدادها له مدد ومداد.

بنشأة الألوهية نشأ الدين، ونشأتها متفرقة نشأ متفرقًا - نشأ بنشأة الشخص شخصيًا وبنمو العقل والنفس نما عقيدة عقلية ومذهبًا نفسيًا - فجًا، بنشأة الألوهية فجّة نشأ عن ألوان فجة من العبادات تؤدّى وفقًا لما يخاله المُؤَلّه تقتضيه رغائب من أله، قبل أن يتطور إلى ورع شخصى وتقى نفسانيّ، وقبل أن يصبح رسميًا ترتحل به المراحل السياسية مراحل وأطوارًا.

أجل.

بتفرّق الألوهية في سَحَر التاريخ نشأ متفرّقًا

الدين غير موحد... وغير موحّد ظلّ حتى المغيب - قصر كهنوته، باختلاف فروعه وانتظام مذاهبه، عن أن يكون لاهوتًا معينًا مقرّرًا، فقصرت وحدته الرسمية عن أن تكون إلا صورية !

الدين، كوحدة، هدف قطّ لم يُبلغ خلال العهود التاريخية للوادي قاطبة فليس في كل ما حفظه لنا التاريخ ثمت سجلٌ واحد يسجل وحدة دينية ومنهجًا دينيًا مرسومًا وإنما مزيجًا متضاربًا من عقائد ينتظمها اللانظام لدين ترتكز وحدته الصوريّة على وحدة شخصية ترتكز بدورها على خليفة الإله في الأرض، ارتكاز الحكومة عليه. ففي هذه الشخصية جمعت المذاهب المختلفة، ومنها كانت تقوم ديانة رسمية للوادي تستمدّ من اسم الإله القائم لها قائمة.

أجل...

من هوّة الكثرة إلى قمة الوحدانية دفعت العقل الإنساني متدافع السياسات... ظاهرة في آفاق الوادي بَدَت منذ بدأت في أنحائه ألوان الاتحاد الإقليمي تشيع وعلى صفحته تنتشر الأقاليم المتفرّقة إلى : جنوب عمّرته الصومال ومن أفريقيا أجناس، وشمال عمّرته من ليبيا وآسيا ألوان... وإلى «ست» معقود حكم الجنوب في حاضرة حاضرتها «نقادة» وإلى «أوزير» معقود أمر الشمال في حاضرة حاضرتها «بوصير» فكلاهما سبط لحاكم من حكام ما قبل التاريخ، على جدران معبد أدفو ما زال اسمه مدوّيًا «رع» !

يهب الماضي من ثنايا القصص الدينية مسجلا أن : ألوان الاتحاد الإقليمى بدأت في فجر التاريخ تخضّب الوادي كما بدأ التشريع وبدأت بالتشريع الأحكام والقوانين، وأن حكم الشمال، والشمال أرقى من الجنوب حضارة وأوسع سياسة قد امتد فأظل حكم الجنوب ومن «ست» انتزع «أوزير» التاج الأبيض وأضافه إلى التاج الأحمر الذي كان به يحكم أقاليم شرق الدلتا - وأن الأمر استفزّ «ست» فقتل أخاه وأقام نفسه مكانه على شطري الوادي حاكمًا - وهنا... هنا تجري القصة بقصة الطوية البشرية وتنشرها طوية مطوية على حب الثأر لنقول : إن للأيام دورة وإنها قد دارت فأكبرت «حور» بن «أوزير» الذي قام منتقمًا لأبيه فقتل «ست» وأقام وحدة حكومية، تحت لوائها انضوى أمراء من غرب الدلتا توغّلوا في أقاليم الوادي حتى دانت لهم أعنّة القبائل جميعًا، فقامت بهم حكومة «حور»، باسم «أوزير»، تحكم بشطريه الوادي من إقليم اختارته لوقوعه في نهاية طرق القوافل التجارية الآتية من فلسطين والشام، والآتية أيضًا من أقاصي الجنوب، فمنه تتمكّن من السيطرة على شطري الوادي تمكنها من ربط صلتها بالخارج، فبزغت على الوادي لأول مرة عاصمة سياسية وعلى الدنيا أشرقت «أُنُّ» أو عين شمس.

والآن.. وقد انتظمت الأجيال قرون أحاطت بحور وبأوزير وبست، وكلاً كحاكم من حكام ما قبل التاريخ حجبت، وكلاً

بسياج القدسية سيجت... الآن وقد انتظمت الأجيال قرون منذ صاحبت نشأة الأقاليم نشأة أرباب متفرقة اختلفت باختلاف تأثر الأقاليم بهذه الظواهر والمظاهر المرئية، وصاحب إدماج إقليم في إقليم إدماج رب الإقليم السائد إدماجًا فُنيت للرب المسود في نهايته ربوبية استحالت إلى صفة في الرب السائد - هذا الإفناء في صورة الإدماج قد دفع العقل الإنساني إلى وحدانية أشرقت بشروق عين شمس عاصمة للوادي وإقليمًا سيدًا فساد ربها المحلي أرباب الأقاليم التي بدأت تندمج فيه وتتلاشى وتنتشر فيه مظاهر وظواهر ويطلع رب عين شمس إلهًا أعلى هو الموُجد للوجود، الموُجد هذه الأرباب التي بها قواه تتراءى على شكل مظاهر وظواهر وأمّا هو، هو نفسه فواحد أحد لا يُرى!..

أجل...

ألوان من الألوهة وعن الألوهة طافت بمخيِّلة العقل الإنسانى وليدًا وطفلاً قبل أن يغدو يافعًا فينسبها إلى قوة خفية متمثلة في الطبيعة، ورموزًا لهذه القوة الخفية يُصورّها، فمذ بزغت عين شمس وبدأ العقل الإنساني من أعلى أبراجها يستشرف الوجود تغيرت إلى الألوهية منه النظرة فقرون من الزمن الآن قد هوت منذ خامر مشاعره شعور غريب اختلج بين ضلوعه نبرات هاتفة :

إن للوجود مُوجِدًا واحدًا !

مُوجِدٌ واحد ينبغي أن يكون الموجود اللامحتاج إلى موجد - الموجد نفسه بنفسه - ينبغي أن يكون الأتم التام... فكّر العقل فناداه منه اللسان «آتوم» !

إن المعنى من اسم آتوم» إنما يعني «كل شيء» بل إن الاسم ليعني بوضوح «الشيء التام»، فآتوم أو أتمّ هو الأتمّ لفظًا ومعنى، وأمّا أين هو ؟ فسؤال تساءله العقل الإنساني وهو في آفاق عين شمس حائر يتلفّت يبحث عن الموجد مَنْ مِنْ قواه هذه الظواهر والمظاهر، ولكن... منذ ترك المغارة والكهف وعلى شكل خلايا النحل دلف يشيّد لنفسه بيوتًا، يجد نفسه إلى الشمس متجهًا حيثما كان هو من الأرض، وحيثما كانت هي من الفضاء، ودون أن يدري لِمَ إليها يتّجه يبتهج لها مشرقة، ويحزن لها غاربة..

إلى هذا الأتون المضيء الآفاق نورًا يجد نفسه ملتفتًا - وإليها.. إليها لا كما في سائر الأقاليم يتّجه وإنما، مؤلّها لها يتجه في هذا الإقليم الذى قد وجد نفسه فيه لها عابدًا م ذليل التاريخ يناجيها ساعة التمام : **آتوم** !

وأتوم ؟

اسم، كعبادته، على الوادي دخيل - دخل أُنٌ في سحر التاريخ بمن دخله في هذا الغسق البعيد من أطراف

سـوريا وفلسطين حيث هناك في شـمال الشام تعبد الشمس تحت اسم عدن أو آدون !

أجل..

مُفكّرًا، أطرق العقل الإنساني وعليه من لاهوت عين شمس رداء، وفي مـخيلتـه تُطوِّف من أحـلام السيـاسـة أحـلام... هذه الفرصة قد دانت ليدين له الوادي، وليمتد له على أطراف سوريا سلطان قد واتت الفرصة وسنحت السانحة... أن «آتوم» سيوطِّد هذا السلطان إذا وُحِّد به رع، فحكومة حور حكومة «أوزير» من سبط رع.

ومن ثم ففي دنيا تلك الدنيا سيمتد هذا السلطان غداة يتم هذا التنظيم وتشير يده القوية إلى «آتن» أو الشمس على أنها الإله، وترجِّع آفاق دنياه صوته مدوّيًا أن الإله الشمس إنما إله أُنّ :

آتوم – رع !

ونظَّم لاهوت «أُنّ» الإلهيات فأدمج «رع» في «آتوم» – رفع إلى السماء «رع» وبآتوم وحده وجعله «آتن» أو الشمس !...

عن العقل الجماعي غاب «رع» كحاكم من حكام ما قبل التاريخ إنسانًا مؤلها وفي سماء مصر الصافية سطع إله نوره للكل غامر، وأشعته على الوادي وإلى خارجه تمتد...

وأمام هذه الأشعة الممتدة الغامرة الكل لإله يتلألأ في

السماء نوراً وتنحدر أشعته سيولا تضاءلت مكانة كل رب محلي!

أجل...

نظم لاهوت «أنّ» هذا التنظيم، وعلى الوادي طلع والوجه المصري إلى الشمس خاشعًا متجهًا، يشير إليها:

إنما آتن. إنما الشمس هي: «آتوم رع» رب أُنّ!

بآتوم أدْمج رع في توحيد وإلى وحدة حوّل ثنائيتهما لاهوت قال إنه عن هذه الوحدة، عن منشئه ونشأته، «آتوم رع» نفسه القائل:

«إني أنا آتوم حين كنت في نون وإني أنا رع حين بدأت أحكم مَنْ قد خلقت»

«كتاب الموتى»

لاهوت، قَوَّل الإله القول وراح نفسه عنه يقول:

إن من نون، من ذلك الماء الأزلي الذي انبثق منه الوجود ووُجدت الحياة، ومن زهرة لوتس عليه طافية انبثق «آتوم - رع» متمركزًا في الشمس وطلع على وجود، خلا، إلا من أنفاس ألوهيته!

أفرغ اللاهوت الشمسي في يدي «رع» الخلق فتحوّل «رع» إلى خالق وللخالق سيطرة تمتد على من خلق.. ثم جرت يده تحيك قدسيّ نصوصٍ أقامها على أسس كهانة انتظمت نفسها إلى درجات أعلاها شأنًا درجة النبوّة والاستعداد لتلقيّ هابط

الوحي... وبهذه الصفة خوّل لنفسه وقد غدا «نبي رع» أن يقولّ الإله إنه : لم يوجده أحد وليس له كفوًا أحد - كل ما قد كان قبله موجودًا من أرباب لا يستطيع أن يقف منه موقفًا ندًا أو مماثلا أو مشابهًا فإنما هو خالق نفسه والمنظم وكل واحد منهم إنما يمثل الخواء اللامنظم !

الوجود نفسه كان الخواء والظلمة واللانظام - كان «كوك» يرفّ على «نون» - كانت الظلمة ترف على الغَمْر حتى انبثق الرب الإله فبدأ النور وأصبح هناك فاصل بين الليل والنهار وبدأ عمل الرب الإله القائل عن نفسه :

«إني أنا الذى خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال.

أنا الذي خلقت الساعات ومن ثم جاءت الأيام إلى الوجود.

أنا الذي خلقت نار الحياة.

أنا الإله «خبرع» صبحًا «ورع» ظهرًا، «وآتوم» في المساء»!

قول «نبي رع» الإله والقول وسطرته منه اليد نصوصًا غلفها بالقدسية، وعلى العقل الجماعي انعطف شاهرًا سبابته إليه فى الفضاء :

إن الإله النور ليس كغيره من الأرباب فتلك قد أُوْجدت وأما هو فإنه :

«الإله المقدس الذي جاء إلى الوجود بنفسه...

الإله الأزلي الذى وجد في البدء والذي رفع السماء وسوّى

الأرض[١] «وإله، ألوهته الألوهة، لا جدال في أنه الإله الحق وأنه دون سواه :

«الإله الذي لا ينازع سلطانه منازع ذو القول الفصل[٢]»...

بالألوهية الطبيعية جاءت «أُنّ»، ولتكفل لنفسها سيادة سودّت ربها على أرباب الوادي بأن أدمجته في الشمس وجعلته إله الشمس ثم عليه أضفت صفة الخَلْق لتمتدَّ سيادته على من خَلَق وهذه صفة بها يُطوى أمام سلطان «أُنُّ» المنتشر سلطان الأقاليم... فَلْيَمُرْ الوادي بالأرباب مورًا ! ليعج بالأرباب عجًا ولئن كانت هناك روابط نسبٍ تربط الأرباب بالأرباب فإن رب عين شمس ليس كواحد منها فإنه : إله الكون منذ الأزل، الباطن والظاهر، وأساس كل شيء فإن «آتوم رع» إله : «أحد صمد، لا والد له ولا ولد [٣]».

كلا ولا شريك له في إيجاد الوجود وليس له كفوًا أحد !

إلى الشمس، دينيًا، تحول الوادي فتحول سياسيًا إلى عين شمس..

أجل...

بهذا اللون من التفكير الإلهيّ بدأ الفكر الإنساني في سمت الدولة القديمة، فمذ بدأت مصر تهدأ وتستقر في الداخل وتمتد أنظارها إلى الخارج على أسس وحدتها السياسية امتدت يد الزمن تسجل للوادي دينًا رسميًا بدأ مظهره

يسود الوادي - بدأ بهذه الوحدة السياسية يخرج عن أن يكون عقيدة شخصية ومذهبًا نفسيًا إلى دين رسمي تفرضه الدولة على الناس فرضًا!

أجل...

عن العقل الإنساني قد خلعت الآن يد الزمن رداء «السحرة» وعليه خلعت رداء «الكهانة» - طوت يد الزمن ساحر القبيلة وبمغيب القبيلة غيبته، وطلعت به بطلوع الدولة وإشراق الحضارة المشرقة كاهنًا، بيد أن ظلت سجيته القديمة ساحرًا سجيته الجديدة كاهنًا، فلقد تطورت القبيلة إلى دولة، وتطور هو من ساحر إلى كاهن ولكن قبضته على شئون القبيلة قبضته على أمور الدولة ومن ثم فبانتظام الدولة إلى مراتب ودرجات، انتظم الكهنوت إلى نظام، درجاته ومراتبه فروع تقبض على مختلف الشئون الدنيوية باسم الدين ومن ثمّ بدأت الآراء الكهنوتية تبرز كعقائد دينية.

كل ما يراه الكهنوت صالحًا لحكمه يصوغه عقائد رسمية فتصم بسمة الإيمان من بها آمن، وأما من أبى لها تصديقًا فتصمه بوصمة الكفر بالدين الحق، فالدين الرسمى أبدًا الحق !

أجل...

الدين الرسمي ظاهرة بدأت تسود العقلية البشرية كأثر من

آثار الوحدة السياسية فكاثر من آثار انتظام الكهانة إلى نظام، بدأ يسود العقل الجماعي دين، عليهم يُفرض بعقائده فرضًا - على الجميع يحتِم نفس العقيدة وعلى الجميع يحتم تفكير فرد أو أفراد...

ظاهرة بدت في آفاق الوادي والفجر متفجّر، وعنه بمغيب المغيب لم تغب وكانت لتفكيره الإلهي صدى فعليه طافت ألوان من الديانات الرسمية صاحبت ألوهة «آتوم رع» و «فتاح» و«آمن» و «آتن» فـ «آمن رع».

ولكن...

كل هذه الديانات الرسمية بمشكلاتها ومشاكلها..بما تتضمّنه من مشكلة النفس وخلودها والقانون الأخلاقي والقيم الأخلاقية ومشكلة الجزاء والعقاب ونظريّة الخير والشرّ، قفَت بعضها بعضًا على صفحة الذهن البشريّ وقفت من القلب مكان الشغاف، فوراء الشغاف شيء آخر شُغف به القلب وعليه في حنان انحنت الضلوع - هناك - عَبْر هذه الأديان الرسميّة اللامنتظمة لوحدة دينية كان تيار جار منتظم وحدة عقيدية صاحبت كل هذه الأديان وظلّت جارية عبر تاريخ الوادي قاطبة بل عن الدنيا لم تغرب بغروب شمس مجده السياسي - كنيله المجترف العوارض والمعترضات، مُجْترفة ظلّت، فأظلّت الديانات قاطبة وقامت مذهبًا خالدًا فالصرح منه

إنما وطد له فى القلب البشري قوائم تقوم على أساس فكرة أو بالأحرى :

عقيدة الخلود.

الخلود، فكرة مطوية في طيّات العصور الحجريّة كعقيدة صاحبت العقل، والعقل بالقرب من نهاية العصر الحجري الحديث وليد - فعلى هيئة الوليد دفن في «نقّادة»، شمال «طيبة»، موتاه علامة على ولادته في عالم جديد، من جديد.

من هذه النقطة التي تدور عليها الأحاسيس الوجدانية في هذا الوادي، تحسستّ يد كهنوت «عين شمس» ما وراء الشغاف إلى السويداء من القلب المصري المولع بالخلود.

أجل.

إن حب الخلود طبيعة الطبيعة البشرية. ولكن ما من قلب لهذا الحُبِّ خَفَقَ خَفْقَ هذا القلب الذي إليه امتدت يد كهنوت «عين شمس» فعقّد فيه هذا الحب إلى عقيدة لم تك للسياسة إلا وسيلة ولم تك لأغراضها إلا أداة، فالدين وبالأحرى عقائده، فما الدين إلا عقائد، لم يك، كما يُسفر عنه تاريخ الوادي، إلا وسيلة للاستغلال السياسي وأداة لإدارة دفة السياسات، وتوجيه الجماعة المُعبّر عنها «بقطعان الماشية» الوجْهة المتفقة ومصلحة السياسة الخاضعة بدورها للتطوّر العقليّ - وهذه الوحدة العقيدية التي عاصرت الأديان الرسميّة كلها، مذ مشرق المجد

السياسي للوادي حتى مغربه، تبرز صورة من صُور النموُّ العقلّي والسياسيّ معًا – فغداة نما العقل الإنساني وتفتّح واعيًا فوجد عهده عهدًا إقطاعيًا ينتظمه النظام السياسيُّ العائليُّ والاستقلال الإقليميّ، هَدَفَ إلى إقامة نظام تنتظمه وحدة سياسية تضمّ اتحادًا، الجنوب والشمال، بها تزول هذه النظم الفوضويّة ... أطرق مُفكّرًا، فلم يجد أمامه للهدف السياسي وسيلة إلا الدين.. فكان الوسيلة للهدف المرسوم :

«أُوزير»

سبب، به يُطالعنا :

المذهب الأوزيري عبر الأجيال التاريخية للوادي

إلى عذرا» أو «عاذر» أو عذير» أو كما تنطقه لغة الغرب «أُوزير»، أو كما لفظته الإغريق «أوزيريس» ... الإنسان الذي عاش حقيقة على الأرض كحاكم من حُكّام ما قبل التاريخ وقُتل ودفن في «أبيدوس» ثم ثأر له ابنه «حور» ووحّد الجنوب والشمال في وحدة طبّقها «مينا» رسميًا وسجلها على التاريخ، طاح الخيال اللاهوتي في الألف الرابع ق. م، يتّخذ منه مادة لقصة اعتبرها الأمس دينيّة مقدسة ويعتبرها الحاضر خرافة ومحض أسطورة خياليّة لخيال جامح جَمَح فحاكها، تظهر أول صورة منها في «متون الأهرام» تحدث :

إن «ست» تآمر على أخيه «أوزير» فقتله وألقى

بجثته في الماء حيث تحلّلت ... وناحت زوجته «إيزي» حزنًا فحزنت لحزنها الأرباب.. وانحنت السماء فردّت رميم العظام.. وواصلت «إيزي» البحث عن الجثة فوجدتها وأخرجتها من الماء... وحنا الإله على «أوزير» فسنَد رأسه بيده فبُعث حيًا.. وألقت «إيزي» بنفسها على جثمانه فحملت وجاء «حور » إلى الدنيا... وربت «إيزي» ابنها فلما كبر حارب «ست» ثأرا لأبيه، واجتمعت الأرباب في عين شمس لفصل هذا النزاع وصدر الحكم بأن يلي «حور» عرش أبيه. وهكذا استقرّت في نصابها «معات» أو العدالة وفي نصابه استقر الحقّ !

وأما «أُوزير» فقد ارتفع جسدًا إلى السماء حيث فُتحت له أبوابها وحيث فيها تلقّاه الإله، وعن مُلْك فان في دنيا فانية عوّضه بملك باقٍ في آخرة باقية وأعطاه عرشاً يُنفِّذ من فوقه قضاءه الإلهى فى الوافدين على الآخرة من الدنيا... فلئن عن هنا غاب كملك فليس إلاّ لأنه قد أضحى هناك ملكًا ليحكم الوافدين إلى عالم الخلود !

مَنْ مِنْ أهل الدنيا لن «يموت»؟

مَلَكَ «مَلِك الموت» الانتباه وصرفه عن التنبّه إلا إليه!

أُسطورة باسم «أوزير»، لمحض غرض سياسيّ، حاكها الكهنوت وطلع بها قصة دينية بها انتشر لعين شمس على الوادي سلطان ضمّ في وحدة الاتحادين...

ليُطْوى عهدٌ إقطاعيّ ويُنْشَر عهد يضمُّ «الاتحادين» حيكت الأسطورة واتُّخذ اسم «أُوزير» مادة لإدارة دفة السياسة وتوجيه الجماعة الوجهة التي تقتضيها المصلحة السياسية فجاءت فِكَر العقل الإنسانيّ عهد ذاك فجّة وفطريته فطرية.. ولكن، من ثنايا هذه المادية القاتمة الألوان تتجلّى شفافة تلك البذور الملقاة في تربة النفس الإنسانية، تلك التي كوّنت الورع الشخصيّ والتقى النفسانيّ، فشفّافًا من ثنايا هذه الأسطورة يطالعنا الضمير الإنساني في بدء تنبّهه والتماع القِيمْ الأخلاقية في بدء انفضاض غيوم الغرائز عنها... تطالعنا الفطرة الإنسانية المفطورة على العناصر المكوّنة لهذه الأسطورة :

محاولة تغلّب الخير على الشرّ.

القصاص

الغضب الإلهي للظلم والحب الإلهي للعدل

انتصار الخير ومحق الشرّ.

بهذه الأسطورة أصاب اللاهوت الشمسيّ السويداء من القلب ! من فسحة الدلتا إلى مضيق الوادي أرسلها على شفاه المبشّرين من فناته تُدوّي بنغم إلى القلب الإنساني حبيب، فهي قصة منتزعة من صميم الحياة الفطرية وقانونها - لا غرو إذن أن يجيء التبشير بأثره ويتنبّه الوادي إلى المقتول ظلمًا «السيد الشهيد» !

ولا غرو إذن أن تُعْقَد في النفس قدسيّة «للشهيد» الذي قام من بين الموتى حيًا وأن يُصَدّق العقل الجَماعي، في عهد كان يعتقد بالدواب المجنَّحة، إن «السيد الشهيد» قد ارتفع جسدًا إلى السماء !..

إن هذه الأسطورة التي جعلت من «أوزير» ملكًا للموتى قد ضلّلت العقلية البشرية عهودًا بـ «أُوزير» قد شغفها حبًا التصوير الماديّ لهذه العقيدة. التصوير الذي به تطالعنا :

الصورة الأوزيرية لعقيدة الخلود

لقد صوّر المذهب الأوزيريّ الإنسان روحًا فقال «بالمبدأ الحيّ» واعتقد بكينونة مستقلة للإنسان، عرّفها أنها كالإنسان فهي «كا» وأمّا النفس منه فهي «با».

وامتدت يده تصور الروح على مقابر «أبيدوس» على شكل طائر...

وقال إن للإنسان ذاتًا وقال إن الكينونة أو الذات «خو» و«الخو» فكرة يعرّفها : «الجوهر المضيءُ في الإنسان» وأنه الجزء القدسيّ الرابط بينه والألوهة برباط متجانس - ولكن إذ نرى على مقابر «أبيدوس» هذه الصورة ونرى الطائر يحتضن «الكا» ندرك التعبير المُعبِّر أن «الخو» من «الكا» مكان «الكا» من الإنسان وأنّها روح الكا أو النفس، ولندرك أيضًا أن في طيات

هذا التعبير الروحيّ تعبيرًا ماديًا. فلقد صوّر المذهب الأوزيريُّ الإنسان روحًا تنطلق بالموت على شكل طائر، قد يكون أخضر اللون، إلى حيث يتفيأ «شجرة الحياة» حتى :

«يوم البعث» !

وإن في «يوم البعث»، كما بُعث أوزير بجسده الأرضيّ جسدًا، سيُبعث الثاوي في أحضان الأرض وستعود الروح لتنال جزاء ما قدّمت يداها... سَيُبْعَث الإنسان وإلى «أوزير» يومئذ المساق في قاعة :

«الحساب».

إن هذا «اليوم» الذي سيحيا فيه الموتى، بالصيغة التي تذكرها الآية الخامسة بعد المائة من «كتاب الموتى» سيتهلّل فيه الميت ويفرح لعودته حيًا قويًا معافى فاليوم «يوم معات» يوم يُنْصب ميزان العدالة ويُوْضَع في نصابه الحق !

إلى «يوم الحساب» سيدلف الإنسان لا مَحالَة، ومن يوم الحساب ليس له مفرٌّ وإلى «محكمة أوزير» سيُساق حيث ينتظره عسير الحساب، فيوم الحساب يوم عسير، يوم تنطق ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون... لن يستطيع امرؤ يومذاك فرارًا ولا كذبًا، فلسانه ويده وقلبه كل سينطق وعليه سيشهد بما فعل، ويومذاك، بعد أن يؤدي صيغة «الاعتراف السلبي» ستكون أعماله حاضرة، سيئها وحسنها حاضر، يضعها «تحوت» أمام

«أوزير» فى كـفتى الميـزان، فـإذا ارجـحت الحـسنات الـسـيئات فجزاء من أحسن واتقى :

«جنان عالو».

مفتّحة لـه منها الأبواب وفيـها له جزاء كل مـا تشتهيه الغرائز والعاطفـة من دنياه، ومـا تشـتـهـيه منه الـغـرائز والعـاطفـة من دنيـاه لم يك إلا مـا جـاء من نصـوص تنصُّ أن له جزاء هناك :

«الخمر وَاللبن و اللباس» !

أيّ الأمكنة مكان الجنة العالية أو «جنان عالو» ؟

لقد تغير مكان الجنة بتغيُر الزمن ومن مكان إلى مكان في غير تحوّل عن العقيدة تحولّت.. بدأت ناحية من الأرض ثم امتدت إلى ناحية أخرى من الوجود غيـر الأرض – بدأت بأن كانت في نهاية «سكْحتْ أرو» في مكان مـا بعد مـستنقعات الدلتا... لم يك للعقل علمٌ إلا بهـذه الناحـية من الأرض فلم يعلم أنه حين يزداد بالجغرافية علمًا ستزداد آفاقه اتساعًا وسيحدِّد مكان الجنة بين الرافدين حيث هناك

«جنات عدن».

ولم يك يعلم أنه بعـد ذلك ســتـزداد الآفـاق أمـامـه اتساعًا فتمتد نظرته إلى الفضاء فيتوهّم أن الفضـاء سماء صلبة وأن الأرض مسطحة، وإلى المجرّة أو بعبـارة أصح إلى البـقـاع

السود من المجرَّة أو «الغاز الأسود».. واهما «الغاز الأسود» جزرًا، والمجرَّة نيلا يقول :

إنها الجنة !

ها هي ذي «جزر أوزير» يحيط بها النيل السماوِيُّ.. فيها غرَز الإله «جنان عالو». جنان مكانها سماء تحيط بها الأنهار... وإليها، تنص «متون الأهرام»، يُحمل المؤمنون ! إلى جنة شأنها الشأن سيرتفع من في «الميزان» رجحت حسناتُه سيئاته.. مَن أُعطي **كتابه بيمينه** وكان، على حد تعبير المذهب الأوزيري، من «أصحاب اليمين» وأصحاب اليمين هم الأبرار ممن رضي عنهم الإله. فلهم جزاء هذا الرضا عيشة راضية في جنة عالية، لهم فيها ما يشتهون من ملبس ومأكل وشراب بل كل حاسة جسدية ستنال ما تريده دون أدنى كلال !

ولكن...

إذا رجحت السيئات الحسنات فسيُعطى **كتابه بشماله** ويكون، أيضًا على حدٍّ تعبير المذهب الأوزيريٍّ، من «أصحاب الشمال»، ومَن كان من أصحاب الشمال :

فالنار !

نار موقدة أبوابها سبع ! لكل باب من أبواب الجحيم جزء مقسوم عليه زبانية غلاظ يفعلون ما يؤمرون فيصبون على الكافرين والمنافقين والضالين ألوانًا من العذاب درجاته للنار

درجات وطبقاته للسعير طبقات حتى الدرك الأسفل حتى الدمار والفناء !

بهذه الصورة، تطالعنا العقيدة الأوزيرية فتطالعنا ألوان من المادّية الصارخة ! كلا بل قطعة اقتطعت من المادية البحتة !

صورة فجة جافة، فطرية، صوّرها العقل حدثًا وإليها هَوَى الهوَى الجماعيّ فقد روت منه حمى الغرائز ! النعيم تصوّره غريزيًا بحتًا !.. اللذَّة السادرة والنزْوة الهَوْجَاء والشهوة العابرة، الخمر واللبن واللباس للمتقين.. جزاء ! ؟

نعم...

لا مكان للنعيم الفكري ولا للذة الوجدانية، ولا للنشوة الروحية !

نعم...

لا حساب إلا للنعيم الماديٍّ في هذه العقيدة... تعثَّر العقل الإنسانيُ في هذه المرحلة من تاريخه إذ تصوَّر بعثًا جسديًا... وكبا إذ تصوَّر الجنان مرتعًا للغرائز.. وضلّ إذ اعتقد أن جزاء كبح الشهوات في الدنيا هو إطلاق العنان لها في الآخرة.. !

تلك هي فكرة الخلود كعقيدة أنمتها الأسطورة الأوزيرية بعد أن عمَّ مذهب «أوزير» الوادى واصطبغت بها صيغ الدين الرسمى فأضحت العقائد عقائد أساسية تقول بقيامة وبحساب وميزان وجنة ونار في يوم سيُبْعث فيه ويَحْيا الجسد !

ولكن !

العقل البشري حين سطَّر هذه الأسطورة إنما سطّرها فتيًا تتنازعــه نوازع الفطرة ومنازع الروح ومن ثمَّ فــإذا نظرنا إلى الأسطورة تحت هذه الأضواء أو بالأحرى في ضوء هذه الحقيقة لوجدنا أنها على الرغم من خشونتها وجفافها وفطريتها تُعْتَبر خطوة من الخطي الأولى خطاًها العـقل البـشـريُّ حين بدأ في التفكير ودليلا على تفتح الورع الروحي والتقى النفساني وتيقظ الوعي لصوت الضمير ففيها يطالعنا :

القانون الأخلاقي والمبدأ العقلي في المذهب الأوزيري

في طوايا هذه الصورة ينطوي معنى وتكمن معانٍ فوراء الصــورة البـحت الفطرية تطالعنا فطرة النفس المفطورة على ترجيح كفة الخير على الشر وانتصار الخير في النهاية على الشر... فبالصورة الخيرية صوَّرت العقيدة الأوزيرية «أُوزير» فجعلته للخير رمزًا ثم جعلت الخير له رمزًا فجعلته «ونفر» أو الخيِّر الذي تمتد، من هناك إلى هنا، رحـمـتـه وتشمل طيبته الأحياء والأموات، دائم الاستعداد لمعالجة الإنسان وخلاصه من العذاب في سكرة الموت – ومن ثمَّ فالعقيدة وإن جعلت «أُوزير» مَلِكًا للموتى وحكمتّه في المصير فإنها بإقامته حكمًا يُنفِّذ القضاء الإلهي في أهل الأرض قد أقامته حكَمًا محكومًا نفسه

بقانون قدسيٍّ يحكم العالم وله يخضع الكلُّ حتى الأرباب، مبدؤه إحقاق الحق، وروحه الخير. روح هذا القانون القدسي إنما «معات» «ومعات» الحق والعدالة المنتظمة هذا النظام ومن ثمَّ فنعتها «ابنة الإله» !

إن «معات» هي الصفة التي يجب أن يتصفَّ بها الحاكم والمَلِكُ وكل ذي سلُطة إدارية ومن ثمَّ فطريق التقرُّب إلى الإله الذي في السماء هو إرضاء الرب الذي ارتفع إلى السماء.. وهذا الإرضاء يتلخَّص في إقامة العدالة ونشرها على الأرض، وتعهّد وتوخي الحق في الحياة الدنيوية فإن «مَعَات» تُصَاحِب الإنسان في ترحاله ميتًا.. إن الإنسان حين يرتحل إلى الشاطئ الآخر من الحياة تاركًا وراءه كلّ شيء، سيترك ذكره على الأرض إذا كان من أتباع «معات»... لن يغرب أبدًا عن الأرض قد اتبَّع «معات»... بالأعمال الصالحات سيعيش الإنسان.. فاتبّاع «معات» لرضاء «أوزير» جلاب !

لكي يكون الإنسان «أوزيريًا» بدأ يُحاوِل أن يحيا حياة تَستَجْلِب رضاء «الخيرّ» فحولته المحاولة من الطبع إلى التطبّع، فلابدّ من التشبه «بأوزير» حتى إذا لم يك الطبع بالطبع الأوزيريٍّ شبيهًا.

هذا التحوُّل طَبَع العقلية الإنسانية في صُوَرِها عَبْر التيار الزمنيّ بطابع جديد نفث فى ماديتها روحا به بدأت تتحررّ من

غضاضة المادية إذ اتّخذ تعبيرها في التشبّه صيْغة أخرى أرقّ معنى وأبهم تحديدًا هي : الحياة فى أوزير وبأوزير

لا يكفى أن يكون المرء أوزيريًا في سلوكه وحياته، وإنما لابدّ أن يعيش في «أوزير» وبأوزير فيكون لا أوزيريًا فحسب وإنما «أوزير» نفسه على الأرض !

بهذا المعنى تطالعنا الصورة الأوزيريّة مُكْتَملة في تطوّرها عبر الأجيال التاريخية للوادي شريعة شريعتها الخير !

واستجلابا لرضاء «أُوزير»، «ملك الموتى» الذي إليه تنبّه الانتباه عن غيره من العقائد والمذاهب انقلب قلب الوادي فقام العقل الإنساني يشبق بين الأديان المحلية والعقائد المتباينة وعبرها، وحدة عقيديّة ومذهبا سيدًا «للسيد الشهيد» جرى في غير اعتراض في معترض كل دين، فمن ثنايا الزمن نرى أثر هذه العقيدة التى طلع بها العقل الإنساني كاهنًا وأرسلها من معقله تيارًا يجترف إليه الوادي بكليته، كعقيدة رسخت بين الجوانب تزيدها الأيام رسوخًا على رسوخ حتى بدأ بها يرفُّ على الوادي لون حيٍّ من ألوان الوحدة المذهبيّة.. بدأ منذ بدأت الدولة القديمة وبُدأ للوادي بتاريخ الوحدة السياسية دين رسمي، قبْلتُه ومركز عبادته الشمس، به يطالعنا :

المذهب الأوزيري فى الدولة القديمة :

باسم «السيد الشهيد» الثاوي في «أبيدوس» تستهل

العصور التاريخية في سجل الأيام تسجيل سجلاتها، فمنذ مطلع التاريخ طلعت «أبيدوس» على التاريخ عاصمة للدين ففيها الضريح المبارك الضامّ رفات «الشهيد» - فيها مقام الإنسان المُؤَلّه «أوزير» أو بالأحْرى «بيته»، هذا على حد التعبير المصريّ القديم، وعلى حدّ هذا التعبير نفسه عُرف البيت باسم:

بيت الإله

وبهذه المكانة أضحى «البيت» **بيتًا مقدسًا**...

ومقدّسًا أضفى قدسيته على ما يحيط به فمنذ مطلع التاريخ و «أبيدوس»، مقرٌ : «البيت الحرام»، والتاريخ المصري القديم يسمي أبيدوس :

الأرض المقدسة

مذ تفجُّر الفَجْر في التاريخ السياسيّ للوادي حتى غروب مجده السياسي ومقام «أُوزير» «بيتًا حرامًا» عرفه الوادي للإله بيتًا إليه من إقاصي البلاد تعتلج الجوانح ويعصف بين الضلوع عاصف الشوق وتجيش النفوس ويهز أرجاءها دويُّ الحنين فيدفعها إلى زيارة القبر الحبيب.. لقد أضحى «القبر الشريف» مزارًا ومصلًّى ففيه، في أيام معلومات من كلّ عام، يُقيمُ الكهنوت مسْرحية تمثّل قصة قيام «الشهيد» من بين الموتى.. وبهذه التمثيلية السنوية التي فيها يمثل «عيد القيامة» أضحى المقام :

كعبة..

كعبة، إليها من كل عام يحجّ الحجيج يؤدون من شعائر النسك شعائر تبدأ بالطواف حول «البيت الحرام» سبعًا.. وتنتهي بعيْدٍ فيه تذبح الضحايا وتُقدَّم القرابين من اللحم!

فَرَضَ المصريّ على نفسه «فريضة الحج» إلى «بيت الإله»....

فريضة ينبغي تأديتها ولو مرة واحدة في العمر حتى يخلص المرء من ذنوبه !..

أجل...

لقد عرف العقل الإنسانيّ أول ما عرف من أراضٍ مقدّسة، «أبيدوس» - وعرف فيها، بمقام «أُوزير»، كعبة إليها يتلهّف منه القلب وتجنّ منه جنون العواطف شوقًا إلى رؤية «السيد الشهيد»... ميتًا يقوم من بين الموتى حيًا... وجسدًا حيًا يصعد إلى السماء !

في الوعي الإنساني حَفَرت العقيدة الأوزيرية المعْتقدات وبها وَجَد الكائن الإنساني نفسه خلفًا عن سلف أسيرَ هذه الاعتقادات، ففي طوايا نفسه قد عُقّدت هذه العقائد التي بدأت تتجمّع وتُكَوِّن أساسًا لوحدة عقيدية بها تكون الشريعة مذهبًا يقوم على أركان قوائمها:

الاعتقاد بوحدانية الإله. الإيمان بالبعث... الحساب... الجنّة والنار.

الحجّ السنويّ إلى بيت الإله.

ولكن..

حول هذا المذهب تدور اللوالب الفكرية متسائلة، أيُّ شيء هذا الذي اجترف العقلية البشرية اجترافًا ؟

على أجنحة المنطق يأتي الجواب : أن لا شيء إلا ابتغاء الجنة ومخافة النار ! منطقيّ من ثمَّ أن : هذا القانون الأخلاقي القائم عليه هذا المذهب إنما يقوم على التخويف والإرهاب، والتخويف والإرهاب وسيلتان يتخذهما العقل الفطري للردع، وهذا اللون من الردع فطريٌ فج وغير قويم ومن ثمّ فما نما العقل الإنساني إلا وعنه تحوّل بينما تشبّث به العقل الجماعي ودان به عقيدة أو مذهبًا.. من ثمّ فنرى بدء رسوخ المذهب الأوزيريٍّ واتخاذ مكانته بين أديان الشمس وفي معترضها بظهور اسم «أوزير» في الأوراد والصلوات الدينية في عهد الأسرة الخامسة، العهد الذي قام فيه «رع» إلهًا رسميًا للوادي لعبادته قام دين غدا للوادي الدين الرسمي وبه يطالعنا :

المذهب الأوزيري في معترض دين الشمس

الدين الرسمي في هذه الفترة في الدولة القديمة «آتوم رع» لعبادة «رع» تقام المعابد، معابد خلت هياكلها من الصور والتماثيل والأصنام، كلا لا صورة ولا تمثال، وخال

هيكله من الأصنام فالتماثيل حرام والأصنام إثم وما يجوز للإله أن يُجسّد في صنم أو يُمثّل في تمثال، فإن الخالق.. ليس كمثله شيء ولا شبيه له فهو

النور.

حسب نوره أن يمسّ هذه المسلات القائمة مآذن تؤذن بقيام دينه فتعكس قممها الموشاة بمزيج الفضة والذهب ضوءه أضواء، في آفاق الوادي تذكرة للمؤمنين بأن الدين، دين عين شمس، الدين الرسميّ.. الدين الحقّ !

فليسجد المؤمنون عابدين الإله الأحد وليأتمر المؤمنون بأمر أولى الأمر فلا يطلب هذا الدين منهم، كما يقول أولو الأمر، إلا الائتمار بأمرهم وإلا الاعتقاد الراسخ بما يفرضه عليهم هذا الدين القائم من عقائد : ليست إلا عقائد المذهب الأوزيريّ.

أجل...

لقد حتمت السياسات أن يكون هذا الدين.. فكان، ولكن على أخطر الأسس إذ عقّد في طوايا النفس الإنسانية :

عقيدة التجسد الإلهي

لكي يكون العرش وراثيًا لا انتخابيًا، أودع في العقلية الجماعية أن الجالس على العرش للإله ظلّ ولأوزير ممثّل.. فليمثل الملك الإله كانت الوسيلة :

«تاسوع أنُّ»

على أسس عقيدته في الطبيعة أو الوجود، القائلة بأن المنشأ إنما «الماء» استمدَّ المنطق اللاهوتي تعقُّله فقال :

أجل...

كان هناك وجود قبل أن يكون «آتوم» فهناك كان «نون»، الماء الأزليّ، وهناك كانت امرأته «نونة».. وهناك كان «هوه»، الامتداد اللامحدود، الشكل الأوليُّ، وهناك كانت امرأته «هوهة» وهناك كان «كوك»، الظلمة، وهناك كانت امرأته «كوكت»... وهناك كان «آمون»، الشيء الذي يمثِّل الخواء، اللا مدْرَك واللامحسوس، الخفيّ ! وهناك كانت امرأته «آمونة».

أجل...

كل أولئك كانوا قبل أن يكون «آتوم» ولكن ! كان الوجود اللا نظام والخواء وكانت الظلمة على وجه «المياه» ترفُّ قبل أن ينبثق «الرب الإله» من «نون»، وبمولد «آتوم» يبدأ النور !

عناصر تسعة، من الخمسة الأول وُجد وجود أو جده رب «أُنّ» فرب «أُنّ» وإن كان نفسه إلهًا طبيعيًا، فإنما هو الموجِد الوجود، فإنما هو «الخالق ».

آتوم هو الخالق وخالق كل شيء دون الاحتياج إلى آلهة شريكة له في إيجاد الوجود فهو الفرد الصمد الذي أوجد الوجود هكذا :

عطس فكان الهواء، وتنفّس فكان الندى.. كان «شـو» وكـانت «تفنوت»... عنصـرين ذكـرًا وأنثى منهمـا ولد «جب» و «نوت».. الأرض والسماء.. ومن السماء أبا والأرض أمًّا ولد «ست» و «نفتيس» و«إيزي» و «أُوزير».

وعلى أسس «التتسيع» استرسل في التصوير وفي مخيِّلته هدف ينحصـر في إعلاء شـأن الشمال على شأن الجنوب وإلى ذلك كانت الوسيلة إعلاء شأن أوزير بقدر ما يهوي بـ «ست» إلى الحضيض فصـوّر «أوزير» خيرًا مـحضًا، وصـوّر ست شرًا صـرفا فـأتى بصـورة من ألوانها تنبعث روح الأسـاطير تحدّث أنهما : أخوان تجسّم في الواحد الخير وفي الآخر الشر... فأما «أوزير» فكان ملكًا عـادلا على الشمـال، تزوج «إيزي» وقـاد إلى الخيـر الشمـال - أنشـأ القـرى وشـرّع القـوانين واستنّ الأيام وطاف في أقـاليم الوادي بالخير بشيرًا فـأحبته الناس وامتدّ له بهـذا الحب على ملك الجنوب سلطان بسـبـبه كـاد لـه «ست».. وحسدًا قتله فتاللّه إنه **لشهيد** !

شهيد سلبه الشرّ على الأرض الحياة التي ردّه إليها بكاء «إيزي» فقام من بين الموتى حيًا.. ولكن... ليرتفع إلى السماء...!

بتسجيل هذه القصـة لاهوتًا وتسطيرها نصـوصًا تغلغل كهنوت «أُنُّ» إلى طوايا النفس البشرية وقبض عليها من موطن الحساسة فيها وأمدّ لأوزير سلطانًا على الدنيا من جديد.

أجل...

تسللت قبضته إلى النفس البشرية في هذا الوادي بهذه القصة، فأولا تصويره «أوزير» شهيدًا خيِّرًا قتله الشر، قد حفر في النفس حبَّه والانعطاف إليه بالعطف عليه - ثم ابتداعه عيدًا يمثِّل فيه من كل عام بدعة ذلك القيام من بين الموتى حيًا، فيعيد من جديد الذكرى، قد شغف القلب حبًا تغلغل بمرور الأيام حتى ساد السويداء وحتى غدا مذهبًا دينيًا جرى عبر العهود التاريخية للوادي وحتى أكَّد القصة بقصة أخرى هيأت الذهن لقبول :

بدعة الإنسال الإلهي وحلول اللاهوت في الناسوت

حينما قُتل «أوزير» لم تك إيزي قد حملت بعد بـ «حور» وإنما بعد أن انتصر «ست» شاءت المشيئة الإلهية تخليص العالم من الشر... فنفخ الإله من روحه في إيزي فحملت بـ «حور»... **من روح الله !**

هكذا...

هكذا جاء ليخلص العالم من براثن الشر، «حور».. **المخلِّص** روح الله ! وأطلَّت في آفاق الوادي إيزي تحمل الطفل الإلهي حور روح الإله... وروح الإله، ابن الإله...

أطلَّت من آفاق العلياء في آفاق الطهر واقفة على هلال... صورة.. صوّرها العقل الإنساني وعلق بها خاشعًا يجتذبه

إليها ما فيها من طهر الألوان. ففيها «إيزي» يُظِلُّ ظلها إلهات الوادي ومنهن «نيث» الإلهة العذراء... وفيها «حور» الطفل الذي ولد بين أعشاب الدلتا وأرضعته واحدة من البقر لبنها وبذلك حق لهذه البقرة التقديس لمنحها «حور» الحياة... ابن الإله من يروح صوت الوادي في أرجاء واديه بلقب له جديد فلا يَعرفه نسبة إلى أبيه وإنما نسبة إلى أمه ويناديه :

حور ابن إيزي وروح الإله ؟

روح الإله ليست، والأرواح في ذلك العهد كانت تمثّل بشكل طائر، كروح من الأرواح فروح اللّه إنما روح قدس.. وانتشرت على الوادي جناحًا «روح اللّه» تظله وترعاه. ومازالت حتى الآن بباهت الألوان من ثنايا الأطلال تطلّ على شكل طائر : «**الروح القدس**» !

أجل...

صورة على صفحة الوعي الإنساني صُوِّرت فسيجتها من القدسية بإطار !

هذه الصورة التى جاء بها التفكير الإلهي لهذا العهد ألقت في الوعي الإنساني بفكرتي : **الإله المجسّد في الطفل. والإنسان المُؤلَّه.**

فكرتان كان لهما ما بعدهما فمنذ النصف الأخير من عهود الدولة القديمة حتى العصر الهيلليني الروماني وانتشار

المسيحية ودنيا تلك الدنيا لا تعرف إلاّ القصة حقيقة دينية... أسطورة غاب عن عهدها لها مغزى.. أسطورة حيكت للاستغلال السياسي فحيك بها بعد «التتسيع» :

«ثالوث عين شمس»

ثالوث تؤلفه :

العائلة المقدسة : الأب والأم والابن الروح القدس.

ثالوث قدسي في ظلّ الإله الأعلى يقف لا يخدش وحدانية الإله المتجلّي في الآفاق نورًا في «آتن»، أو الشمس !..

أجل...

كان «تاسوع أنّ» الوسيلة ليمثّل الملك الإله، وبه اعتبر الملك ابنا للإله فأصبح العرش وراثيًا وأصبح النظام الملكيّ، بقيامه على الحقّ الإلهي المستمدّ من «أوزير»، أمرًا جمع بين السلطتين المدنية والدينية... ودعّمت هذه الوسيلة ببدعة أخرى جاءت تؤيدها هي اصطفاء «رَدَدَتْ» وتجسد الإله لها بشرًا سويًا...

يحتفظ لنا الزمن بالوثائق الدينية الجارية فقراتها في ثقة تحدث أن : رددت، زوجة «أوسي - رع» الكاهن الأكبر لـ «رع» ورأس كهنوت عين شمس، قد اصطفاها الإله من بين نساء العالمين فتمثّل لها بشرًا سويًا.. وكان أمرًا مقضيًا.. ثمرته كان أن جاء إلى الوجود : «أوسر – كاف» !

على العقلية الجماعية لم يك صعبًا قبول هذه الفكرة، فكرة الإنسال الإلهي.. فالتفكير الديني لدى العقل الجماعي لم يك من العبادات البدائية نقيًا... وبهذه البدعة من أن الجالس على العرش قد تمثّل فيه الإله. قبضت عين شمس على أمر الدين والدنيا معًا...

أفسحت البدعة الدينية «لأوسي – رع» إلى العرش طريقًا فاعتلى « ابن الإله » العرش بثياب الكهنوت وبلقب الكاهن الأكبر لـ «رع»، مؤسسًا الأسرة الخامسة ومن ثمَّ كان كل ملوك هذه الأسرة التي جاءت بعقيدة التجسّد الإلهي أبناء الإله !

اعتلى «ابن الإله» العرش وعن هذا الطريق، الطريق غير المباشر، بلُغ الطريق المباشر.. ثبّت دين الشمس بأن جعل القابض على قبضة الحكم ابن الإله !

بدعة مبتدعة ولكن بها ولع العقل الجماعي المولع بالتقديس فقد طابت منه النفس أن يرى نفسه مظللا بظل الإله..

بهذه الخدعة برزت عين شمس من جديد مركزًا دينيًا وعاصمة سياسية وبها برز الكهنوت الشمسي على صفحة الوادي من جديد سيّدا، يتلفت متأملا في هذا العقل الجماعي، يراه كقطيع القطعان، دفعته الدوافع السياسية باسم الدين الوجهة التي شاءتها سياسته، حوله يلتف ولأمره يُصغي فأمره قد أضحى أمر الإله فهو قد غدا نبيًا.. صمته للوحي استماع،

وكلامه للكلم الإلهي ترديد - مدثّرًا بالقدسية غدا فغدا له الحق في أن يقول : تكلّم وقال الإله !

بهذه الوسيلة، ووسيلة نظريّة الحق الإلهي المطلق للملك، ثبّت الدين الشمسي بإعلان الملك نفسه ممثلا لـ «رع» على الأرض بيد أن هذه السلطة المستمدّة من الإله لم تقف عند هذا الحدّ وإنما أصبحت إلهية محضة، والسلطة الإلهية المحضة لا تحدها حدود ومن ثمّ حملت هذه الأسرة علائم الانهيار السياسيّ وهي في أوج مجدها.

ولكن في معترض هذا الدين بمعتقداته وعقائده، كان المذهب الأوزيري تيارًا جاريًا يسير مجترفًا معه هذه العقائد - دفاقًا يجري بقوة كانت نتيجتها أن : أُدْخِل «أوزير» في الدين الشمسي، وُحّد بـ «رع» توحيداً به أضحى يُعتبر «روح رع».. أجل...

في معترض هذا الدين بمعتقداته وعقائده كان المذهب الأوزيري تيارًا جاريًا، ترك أثره على صفحات المقابر وفي «متون الأهرام» - فنحن نرى في «النقوش الزرقاء» لونا فاقعًا لمذهب «أوزير» - نري بين آثار الأسرة الخامسة أثره ونرى هذا الأثر يزداد على الأيام ظهورًا والأيام تسير برواية الدولة القديمة إلى النهاية إذ نرى من رسوم القبور في أيام الأسرة السادسة نصوصًا أطول مما كانت عليه في الأسرة السابقة، فأدعية الموتى

في هذا العهد طويلة مملَّة فيها التعديد الطويل لما قدّم الثاوي في حياته من خَيْر.. وصور مجيئه «يوم الحساب» ليُجَازى بما قد وُعد !.. لقد توخَّى في حياته استجلاب مرضاة «أوزير» فمن حقّه أن يأتي «يوم الحشر» وكتابه بيمينه فلقد ...

أكرم أمّه وأباه، لم يزن، لم يقتل، لم يسرق وفَّى الكيل والميزان، أطعم الجائع، كسا العاري، لم ينهر السائل والمحروم، لم يقهر اليتيم ولا أذل الأرمل ووقّر الكبير !

لقد عمل بهذه الوصايا وطبّق «شريعة أُوزير» وتوخَّى أن يسير وفقًا لمقتضيات هذا المذهب الذي قد غُرس في طواياه غرسًا لا يستطيع شيء أن يحوّله عنه لمكانته في القلب الجماعي مكينة يزيدها تمكنًا صوت للفكر الإنساني يأتي إليه صافيًا لحكيم الأسرة الخامسة : «أقمْ العدل وعامل الجميع بالعدالة إن الرذيلة تمحق الفضيلة» «إن العقل يشكّل صاحبه.. وعقل الإنسان حياته وصحته وسعادته»

«فتاح – حتب».

إلى هذا الحكيم أصغَى العقل وله في كتابه «الأمثال» يقرأ متأملا آفاق الزمن وتصاريف أمر خفيٍّ في حاضر لا يدري من مستقبله شيئًا، ويعجب له ناثرًا في تربة النفس بذور الجبرية : «تأمل ! إن المستقبل بيد اللّه !»

ما من شيء، هيأه المرء لنفسه قد وقع، وإنما يقع ما به قد

أمر خالق السموات والأرض.. استمع، إن المستمع يحبّه الله»

«فتاح - حتب»

استمع العقل الجماعي إلى الفكر الإنساني. استمع إلى هذا النوع من الأدب التأمليّ وحفظه وأعاد نسخ كتابه «الحِكَم والأمثال» والقلب منه منصرف إلى «أوزير» انصرافًا كليًا لم يحوّله عنه الدين الذي قام بقيام «منف» وطلوها عاصمة للوادي، يطالعنا :

المذهب الأوزيرى في معترض الدين المنفي

برزت «منف» عاصمة للوادي تحكم شطريه بسلسلة حلقاتها حكام كل منهم «لحور الإلهي»، على الأرض ظلّ. ففي كل منهم روح «حور الإلهي» تحلّ ليصل حكم الأرض بحكم السماء... وببروز «منف» برز لـ «منف» رب تعرف من أوصافه وصفاته الجمال، وتعرف من اسمه معنى الفتح - تنعته «الجميل»، وتناديه تضرعًا «فتاح» !

بتاريخ الوحدة الحكومية قرنت «منف» اسم «فتاح» ولقّبته «ملك الأرضين» ليمتدّ به على الشمال والجنوب لها سلطان، ولكن... عرفت «منف» أنه لن يوطّد لمنف على الوادي سلطان حتى يكون «فتاح»، كما كان «آتوم - رع»، للأرباب إلها - وليجري التفكير اللاهوتي المنفي عبر تيار فكري مغاير

كل المغايرة لما جرت عليه اللوالب الفكرية في «أونّ»، فمطرقًا في ردائه الكهنوتي ومن ألقابه «المعلم الأكبر» جرت لوالبه الفكرية تفكّر بتلك البدعة التي جاءت بها عين شمس من قبل، غداة أودعت في وعي الوادي أن رب عين شمس هو «الخالق»...

أجل..

يجب إعلاء «فتاح» إلى هذه المكانة بأية وسيلة!

أمر عرفه التفكير اللاهوت المنفي فأدرك أن لن يبلغ «فتاح» هذه المكانة، إلاّ إذا تلاشى «آتوم» في «فتاح» - يجب إفناء «آتوم رع» وإحلال «فتاح» هذه المكانة، فما ساد «آتوم» الوادي آمادا إلا بهـذه المكانة وعن طريق هذا الطريق.. إلى هذا الإفناء طريق طريقته : **الإدماج**.

إن من قبل قد جرت بالتعديل العادة برفع رب المقاطعة السائدة إلى مقام الرب الأعلى أو الإله ووسيلة ذلك إفراغ أمر الوجود في يديه... ولكن على «منف» الأمر جدٌّ عسير ففي يد «آتوم» قد أفرغ لاهوت «أونٌ» أمر الإيجاد كما إلى مقام السيادة قد رفع «أوزير» وكما جعل «حور» من الإله الروح القدس !

وأطرق «المعلم الأكبر» متنبهًا إلى أن العقيدة السائدة وهي أن «آتوم»، هذا الذي منه قد انبثق «التاسوع»، نفسه قد انبثق من «نون»، فألوهته ألوهة تقف على أساس لا تقوضه إلا عقيدة تسود فيها أسبقية «فتّاح» على «آتوم» !

إذن فطريقه بدعة جديدة... بدعة، بها طلعت على تاريخ التفكير الديني ..

«عقيدة الكلمة، والخلق الفكري»

طرق العقل هذه الطريقة التي ظاهرها الإدماج وباطنها الإفناء، وابتدع لونًا من ألوان الألوهة جديدًا، وحيه فيها كان بيئته الاجتماعية وحالته السياسية، فلقد : نظَّم الحكومة ونسَّق الجماعة فرأى أن النظام لا ينتظمه إلا عقل ! وأنه لا يأتي بالأعمال إلا... فكرًا

يفكر العقل، فينطق بما فكّر العقل اللسان وتُلْفَظ : الكلمة ! ومن ثم فاللسان يجعل أفكار العقل ظاهرة، ويخرجها إلى حيز الوجود حقيقة محسوسة عن طريق «الكلمة».

.. إلى الكلمة التي تعلن الفِكَر الجائلة بعقل الإله وتخرجها إلى عالم الكون المحس فتصير شيئًا، مرَد كل شيء.

فمن ثم فمرد كل شيء ومنشؤه إلى ما أراده عقل وصوره فكر ونطق به لسان.. وأما الأداة التي يصبح العقل بها قوة منشئه، فهي

الكلمة !

مفكرًا أطرق، ومستقيمًا طلع «المعلم الأكبر» معلمًا أن :

من «نون» انبثق على زهرة لوتس «آتوم» ولكن «فتاح» لنون سبَّاق ومن كان على نون سباقًا فقطعًا هو سباق على «آتوم» !

سبّاق «فتاح» على «آتوم» لأن فكرة إيجاد الكون والأرباب جالت في فكر عالم قدسيّ، قلبه ولسانه كان فتاح فإن فتاح هو قلب ولسان التاسوع الإلهي.. فإن :

مِنْ «فتاح» يُمثَّل «آتوم» : الفكرة

ومن «فتاح» يمثّل «حور» : العقل

ومن «فتاح» يُمثّل «أوزير» الكَلِمَة.. !

وهكذا تجري النصوص تبرز لا أسبقية «فتاح» . على «آتوم» فحسب وإنما تفني «آتوم» فيه وتجعله منه عنصرًا فتسطر أن : « فتاح » ! **الواحد** الأعظم هو قلب التاسوع الإلهي ولسانه ، وهو ، « فتاح » ، الذي جاء بالأرباب ... منه جاءت الفكرة ليكون الكون فكان آتون هذه الفكرة ! وهكذا فإن القوة الخالقة لـ «فتاح» هي التي جاءت بالرب الإله « آتوم » !

بهذه المعاني والمجرّدات أتى العقل الإنساني في «مَنْف»

أدمج العقل وابتدع بدعة الإدماج ولكن ..

أحسّت حواسه بالمعاني والمجرّدات لجعله الأرباب عناصر مجرّدة في تكوين «فتاح» ... بالطبيعة عاد إلى مُوجد لها لم يجعله كما جعلته « أن » منها مخلوقًا - ثم وعلى ما انتهج من إدماج سار فحوّل أرباب الطبيعة إلى مجرّد صور ومظاهر لفتاح رب « منف » الذي فكّر بعقله ولما هو جائل بفكره تكلم بلسانه وقال : كن ! فكان ...

وهكذا ...

وهكذا فهم الفهم الإنساني عهد ذاك أن « فتاح » هو الأعظم وهوالمُوْجِد وهو الأقوى وهو الإله دون كل رب ، وأنه :

« الإله الذي صنع كل شيء وبعد أن نظَّم كل شيء ارتاح »

أجل ...

بهذا اللون من التفكير الإلهي وبعقيدة « كن فكان » جاء العقل الإنساني في هذا العهد ... فهذا اللون من التفكير الإلهي نتيجة حتمية لهذا العهد السياسي المنظم الذي استمد من انتظامه نظام الكون فجعله من صنع **عقل الإله** ، ... جاء إلى حيز الوجود المحس **بكلمته** التي قالت للشيء كن فكان .. !

واتَّبع الوادي الدين المنفي ...

ولكن ...

في غير انصراف عن « شريعة أُوزير » بل زاده بها تمسُّكًا إعصار الدنيويات وأعاصير السياسات وهبوب سموم هبَّ نذيرًا بنهاية الدولة القديمة ، كان من الطبيعي أن يعصف في عهد الأسرة السادسة غداة بدأ يتكوَّن منذ اللحظة التي ثبت فيها دين « رع » بإعلان الملك نفسه لرع على الأرض ابنًا فقد طبَّق مبدأ الحكم الإلهي المطلق ، وبها أصبحت صبغة الملك دينية بحتة وفقدت صبغتها الزمنية وأضحت سلطته الإلهية سلطة مطلقة وهذه السلطة المطلقة قد حوَّلت الملكية إلى حكومة أثرة قدَّمت فيها المصلحة الخاصة على الصالح العام . ومن ثمَّ حمل

نظام الأسرة الخامسة ، أزهى عصور الدولة القديمة ، أسباب انحلال هذه الدولة الذي طلعت طوالعه في عهد الأسرة السادسة بظهور حكام الأقاليم وبدء عهد إقطاعي جديد حزّبت فيه الأحزاب وتعدّدت الشيع فغزا الآسيويون البلاد .

وبين حروب أهلية داخلية وغزوات خارجية يجد القلب نفسه مدفوعًا أكثر عن ذي قبل إلى « مَلِكَ الخلود » ، وإليه يخلد والآفاق تتلبّد مؤذنة بمغيب الدولة القديمة ، يزيده بالعقيدة الأوزيرية تشبّثًا قرون تنسلخ عن فوضى لا يجد الإنسان فيها عزاء إلا في عالم آخر سمته السعادة والخلود ، بل وظل بها متشبثًا بقيام الدولة الوسطى وظهور دين رسمي جديد للوادي قِبْلته أيضًا الشمس وأساس عبادته الإله الخالق الطالع باسم « آمن » ليطالعنا به :

المذهب الأوزيري في معترض الدين الآمني في الدولة الوسطى

على أنقاض موجة الفوضى وبعد هدأة ومرحلة استقرار كانت نتيجة حتمية تبعت مرحلة القلق ، قامت « طيبة » تحت غمرة من الروح الدينية الجارفة تقيم المعابد للرب الذي عرفته منذ القدم تحت اسم : « آمن »

ولـ «آمن» أقامت طيبة المعابد إيذانًا بقيام دين رسمي للوادي واتّبع الوادي الدين الطيبي ..

ولكن ...

هذا الدين الرسمي لم تخرج وحدته العقيدية عن الصورة الشكلية فمكانته في القلب دون المكانة الأوزيرية !

فلتؤد شعائر العبادة لـ « آمن » ، صلاةٌ ترتّل أورادا بكرة وعشيًا - وقرابين تُضحّي لا ينال « الإله الخالق » منها اللحم وإنما يناله منها البر - ليطوف كهنوته « بالزيت المقدس » يمسحون المؤمنين مسحًا ، وبالماء المبارك يرشونه على الخشّع رشًا .

لتؤدى الشعائر والطقوس والفرائض لهذا الدين الرسمي ، وأمّا القلب فمكانة « آمن » فيه لا تضارع مكانة « أوزير » ، فللمذهب المكانة المكينة باعتبار صاحبه ملَكًا للموْتى إليه تصبو الروح إذا عرفت الألم وألّمت بها الملمات ... وأثبت ما حفظه لنا الزمن عن ذلك كأثر من آثار الدولة الوسطى «بردية خاتي الثالث» ، فهذه القطعة من الأدب التهذيبي في سفر الأمس وفيها نسائم العهد الأهناسيٌ وروح عصر شاهد صراعًا بين الفوضى والنظام طويلا وتفكير عقل امتد منطقيًا رصينا والمنطق الرصين وليد عاطفة تأججت وأصابها من الهزّات العنيف !.. امتد على حروب طاحنة وانحلال قاس يتأمل تفاهة التطاحن على شيء غير باق :

«إن الإنسان يبعث بعد الموت وتوْضع أعماله بجانبه كالجبال ! إن الخلود مثواه هناك!»

« خيتي »

لن يُترك الإنسان سدى يعيث فساداً في الأرض - أنَّى له فالحساب ينتظره بعد الموت والعدل الإلهي له بالمرصاد، ومن ثمَّ:

« ليس لأحد على الأرض أن يقتل ، ولا أن يعمل بما يخالف العدْل لأنه سوف يؤدي حساباً عن أعماله ... إن القُضاة المقدَّسين « محكمة أوزير » الذين يحاكمون الميت لا يتسامحون في تطبيق الشريعة ، فويل حينئذ للمفتري !

لا تغتر بامتداد السنين فإن حياة الإنسان على الأرض ليست في نظر القضاة المقدسين سوى لحظة !

سينشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطئ الآخر وستكون أعماله مجتمعة بجانبه .. إنها الأبدية لاشك فيها !

الحياة على الأرض تمشي على عجل .. امتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكه .. فمن اتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه في الحياة الباقية خلود .. إن الذي يأتي بغير ذنوب سيحيا حياة الأرباب ، ومن جاز الحساب أمام « أوزير » مضى إلى الحياة الأخرى .. أما من تساهل مع نفسه في الحياة الدنيا فلا مفرَّ له من العدم !

إن الفضيلة التي يتحلَّى بها الإنسان العادل أفضل في عين اللّه من الثور الذي يذبحه الضَّال له قرباناً!

انظر ! إن الناس «قطيع الإله» وهو يهديهم سواء السبيل .. إنهم خلقوا منه **على صورته**.. خلق لهم الأنعام والنبات وصيد

البرّ والبحر .. وهو يسمعهم حينما يبكون ويشكون»

«خيتي» .

أثر من آثار الدولة الوُسطى هذه العقيدة الدينية بالشبه الإلهي للبشر ولكنها دولة نرى في مطلعها العقل الإنساني يخطو نحو نموٍّ جديد ، فإلى جانب واهي العقائد نراه يشيد بالفضيلة ويراها أفضل في عين الله من تقديم القرابين - دولة شادت العدل وكانت العدالة لها دينًا فإن كل الناس سواء ، خلقهم الخالق ، فالإله إنما هو عن نفسه القائل :

« سأقول لكم الأعمال الأربعة التي صنعتها .. لأخمد الشرّ ! صنعت الرياح الأربع ليتنسّمها كل إنسان .

صنعت المياه لينتفع بها الفقير والغنيّ على سواء .

صنعت كل إنسان كأخيه .

إني لم آمر الإنسان بصنع الشرّ وإنما صنعت قلبه ذاكرًا « الرب » حتى يُؤدي قرابينه للإله ! »

تغيُّر جديد تنساب به روح العصر تقول بمساواة شاملة تمتدّ من هذا الشاطئ حيث الحياة فانية إلى ذلك الشاطئ حيث الحياة باقية - كلُّ فرد سيتمتَّع بالخلود فليس الخلود الآن، كما كان في الدولة القديمة ، قاصرًا على الملوك وإنما كل إنسان سيستمر مع « الكا » التي ينتسب إليها روحا قبل أن يكون «آخ» أو نفسًا عاملة وقبل أن تضمه بأبديتها «جنان عالو» - تغيرٌ ساد

فيه الاعتقاد أن الحياة الأخروية وقف على الأعمال الدنيوية
فساد الدولة الوسطى تقوى ، يقبل عبرالماضي من عبيرها عبيراً
يشتد منه الأرج والأيام بها تسير إلى الأسرة الثانية عشرة
١٩٩٥ - ١٧٩٠ ق . م .

كالأسرة الخامسة في الدولة القديمة كانت من
الدولة الوسطى الأسرة الثانية عشرة .. زهت بالعصر وبها زها
العصر فعهدها عهد بدأت فيه مصر تعبد مركزها القديم في
الجنوب ولا سيما في شبه جزيرة سيناء . فالتمعت في آفاق
الوادي حياة لوّنتها البهجة .. ولكن في هذه المرحلة من التاريخ
نما وعى جديد وكنتيجة حتمية لهذا النمو العقلي والتقي
النفساني كانت نهضة أدبية تعود بأسبابها إلى خيتي ، قادحاً
الجهل مادحاً المعرفة ، وبالإنسان يهيب :

« تأمل ! لا شيء يفوق **الكتب** » .

« **خيتى** »

بدأ الإنسان يعلم أن للكتب مكانتها ، وولعت منه النفس
بالكلمة المكتوبة ولعاً حفّ الكلمة المكتوبة بالقدسية وألهب الخيال
منه وقدحه .. ومن أثره اقتعد الأدب في هذه الفترة التاريخية
شامخ القمم ، والأسلوب غدا لا يضاهيه ولا يضارعه في كل
مراحل التاريخ المصري أسلوب - إلى اللفظ المهذب وإلى اللهجة
الحسنة اتجه العصر !

تلك ميزة العصر كما تنتشر عنه طوايا التاريخ مما دوّنته

الدواوين واحتفظت به البرديات التي تحدث أن للثقافة المركز الممتاز كما تحدَّث أن الظاهرة التي تصاحب أبدًا كل نهضة أدبية بدأ ظهورها في هذا العصر فقد صاحب نهضته الأدبية إهمال الناحية الدينية !

من ثنايا أدب العصر تطالعنا هذه الحقيقة التاريخية تحدَّث أن للطبقة المثقفة كان الدين محض تراث وأما العقيدة التي لا تتزعزع فتلك التي كان محورها : « اللّه الأحد » !

أجل ...

عرف هذا العهد نهضة أدبية التمعت في آفاق الوادي منها الأضواء ، فالقصص القديمة من جديد تُنْسخ ، وإلى جانبها الأدب الجديد بالجديد فيَّاض ... فكم من قِصةَ وقصة عن القدامي في مسامع الزمن أعيدت فوعتها من الأجيال الأجيال ... وكم قصة بعد قصة خضَّبها أدب العصر وأرهفها منه للإحساس إرهاف ، حُفرت في وعْي الزمن وراجعتها في رجوع إليها من بعد .. الأزمان ؟ !

قصص ! ..

قصص سنرى أثرها فيما بعد - في الدولة الحديثة - فإن كل ما سجلّه هذا العهد من القديم والجديد هو الذي ظل من بعد في مدارس الدولة الحديثة يُقرأ ويدرس ويتدارس بينما اللاهوت يُودع في العقلية الجماعية عقيدة **النصوص المقدسة** .

غرف هذا العهد هذا اللون من النهضة الأدبية في ظلال دين لآمن رسمي والعقل الجماعي إلى مَلِك الموت منصرف بل يزيده إلى الثاوي في البيت الحرام في « أبيدوس » تحوّلا تحوُّل « سنوسرت الأول » له مصلحًا فقد حوّلت الأيام البيت إلى « بيت عتيق » يتطلّب الإصلاح .. فليشيد في أبيدوس مقاماً جديداً «للسيد الشهيد» وليحفر في فنائه بئرًا يروي قدسيّ مائه ظمأ العطشى من الطائفين والعاكفين والركّع السجود من الحجيج ! أجل ..

في هذا العــهــد غــمــر المذهب الأوزيريّ الوادي واجترفت عقيدته عقائده ، .. ففي هذا العهد عرفه الوادي برب « أصحاب اليمين » .. وفي هذا العهد بدأت آيات كتاب الموتى تكتب على الأكفان .. وفي هذا العهد بدأ المقرئون يرتلون ويتلون بنغم الآيات في الاحتفالات والمناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية .

ولكن ...

هذا العهد أيضًا هو العهد الذي به امتدت يد الزمن ترسم على جدران مقابر بني حسن ، الوجوه الآسيَّوية ، وما زالت منها الصور معلّقة في معرض التاريخ وعليها من اللباس ما يحدث بحضارة لا تقل درجة عن الحضارة المصرية وإنما ذات لون مغاير – هذه الوجوه التي أدركت ما تضمره منها الضمائر ،

أقلية ، تغيب في طيات الزمن لها أسماء ومن بينها يبرز «أبوي».

لأبوي عرفت مصر مما عرفت من الأنبياء نبيًا دوّت باسمه آفاق الوادي واحتفظت له يد الزمن بصورة نراه من ثناياها ينذر الجالس على العرش باتخاذ الحذر وإلاً فأحداث ستحدث ونوازل ستنزل ، و « سيتحول ماء النهر دمًا » .

أجل ...

النبوة والتنبؤ بصورة « الوحي الهابط » أو التنزيل ألوان خضّبت في كل المراحل التاريخية تربة الوادي . بين الفترة والفترة من الزمن كان يقوم « نبيّ » جرت العادة أن يعلن نذره وبشائره للجالس على العرش فيتزعم أن ما يقول يأتيه عن طريق الوحي .. هكذا كانت أنبياء مصر القديمة وهكذا كان « أبوي »..

بينما كان الوجه المصري يتحول إلى حيث الأرض المقدسة ، ومن أقاصيه يمني النفس بالحجّ وزيارة « البيت العتيق » ، ويشرئب متنسما النسائم المقبلة من « قبر الحبيب » ويتحرّق شوقًا إلى الارتواء من ماء البئر المقدّسة ، هبت سموم رياح الحدثان ، وبعد صفاء اغبّرت آفاق البلاد بالغبار المتطاير من سنابك خيل الهكسوس !

ولكن ...

لم تُحوّل الوجه المصري أحداث هذه السيادة الدخيلة ، وعن « أوزير » لم تصرفه الصروف بل ظلّت طوال عهد

الهكسوس العقائد الأوزيرية سائدة ، لم يجفها والليل مُدْلِهِمٌ بل وجد نفسه إليها خالدًا في فجر جديد عقب هذا الليل الطويل على الوادي عاد فيه ، بقيام الدولة الحديثة ، من جديد دين آمن ليطالعنا بذلك :

المذهب الأوزيري في الدولة الحديثة

من جديد جاء « آمن » ولكن لن يستطيع « آمن » الإله الرجل ، انتزاع السلطان من رع »الإله النور» ، ويحل محلّه شمسًا فألوهة « رع » ، بما كان لكهنوته من سلطان متمكنّة منذ القدم من قلب الوادي !

ولكن ..

هناك من الوسائل وسيلة ليست جديدة على الكهنوت في مذاهبه المختلفة وهي وإن كانت عسيرة فقديما قد استنبطها ، ولتحقيق أغراض الدنيا عن طريق الدين بها اضطلّع حينما وحّد وأدمج وابتدع التوحيد والإدماج .. يجب إدماج «آمن» في « رع وتوحيده به يخلع صفاته عليه بحيث يندمج الاسمان وحينذاك يتم توحيد الرب والإله ويبدوان اسمين لمسمى واحد ، ولمعنى واحد وجهين .

وأسرعت في إرهاف في يد اللاهوت الطيبيّ الأقلام وعلى البرديّات في هدأة « طيبة » دوّى لها صرير أصداؤه ترجيع

المؤذنين من فـوق الأبراج والـصـوامع يعلنون إتمام هـذا الإدمـاج والاتحـاد الـتـوحـيـدي، فـلا يُنادى «آمن» بمفـرده كـلاً ولا ينادى بمفرده « رع » فما آمن وما رع؟

إله واحد له الاسمان، **فليس للكون إلا خالق واحد، أحد صمد، لا إله إلا هو: آمن رع .**

إله واحـد ليس من سـواه إله - لألوهـيتـه ترتفع الأناشـيد ترجّع قـدسي نصوص تنص أن « آمن رع » إنما : الإله الواحد ! وأنه :

« الواحد الأحد الذي لا غيره »

« واحد أحد لا شريك له »

«الواحد الذي لكل الكائنات قد خلق ... الواحد الأحد الذي لكل ما يوجد قد صنع (٤).

قوي كان اللاهوت الطيبيّ بهذا الإدماج بوصفه الالهَ الذي عـرفه تحت اسم آمن بصـفـتي الوحـدانيـة والخلق ... ملكت منه اليـد ناصيـة العقل الجـمـاعي الذي غـدا لا يرى في «رع» إلا «آمن»، الواحد المُفْرَغ في يديه أمر الخليقة والخلق .. دهاء امتاز به عن أهل الشمال أهل الجنوب يشتد ظهورا ببدعة أخرى فهو بعـد أن اطمـأن إلى أنه قـد أفنى «رع» وأبرز «آمن» عن طريق إدمـاج «آمن» في «رع» وإفناء «رع» في «آمن» وتوطيد ألوهة له في الشـمس ، يتـحـول إلى العقل الجـمـاعي ، العـالق في ذهنه

أطياف من أرباب الماضي فهو على الرغم من اعترافه بألوهة الآله الخالق «آمن رع» فإليها يعود وإليها في ملماته ينزع فهو إلى «فتاح» يهزّه الحنين وعلى «أوزير» سقيما ومعافي يقبل ، يريد أن يحوّله إلى رب طيبة ... ولتوجيهه هذه الوجهة له يقول : إن «آمن رع» واحد في شخصه ولكنه ... الخفي !

أراد الخفيّ أن يخرج من خفائه فأنمى صفاته وفي الوجود نشرها وعن طريق هذه المظاهر المنتشرة يخرج الخفي من خفائه فيكون :

منتشرًا في صفة الحق :

فتاح ومنتشرًا في صفة الخير : أُوزير !

وكالشأن شأن سائر الأرباب !

كل صفة من صفات « آمن » في انتشارها منه تصير كائنًا أدنى منه مرتبة أو ما يمكن تسميته مجازًا بربّ..كل هذه الأرباب المنتشرة على صفحة الوادي هي في حقيقتها صفات منتشرة من الآله الواحد وبأسباب وجودها إلى شخصه تعود فليست في حقيقتها حقيقة فإنما هو الواحد الذي لا شيء حقيقي سواه .. ومن ثمّ فليذكر القلب الجماعيّ إذا ما توّجه إليها أنها « للواحد الخفي » محض صورة !

ليذكر القلب الجماعيّ أنها مجرّد ظواهر مختلفة يظهر خلالها من خفائه « الخفيّ » فإذا ما هزّه إليها الشوق وعاوده

إليها الحنين فليذكر أنه إنمًا إلى « آمن » في الحقيقة متجّه فإن « آمن » فيها كامن وأن ما هو إلاّ « واحد » صفاته هذه الكثرة المنتشرة – فواحد هو .. هو كل شيء فهو وهو كل شيء : «الكلّ» !

بواحد محتجب خفيّ ، ليظهر من خفائه يتراءى في هذه الصفات التي تكوّنت كائنات أدنى منه مرتبة تقف وَسَطًا بين الألوهة الكاملة والإنسانية الخالصة ويتخّذ لهذا الظهور أيَّ مظهر شاء وأية صورة أراد ، خُضِّبت النفس البشرية بلون من التفكير الإلهي والدينيِّ جديد انفسحت به آفاق في فضاء الدين جديدة ، ففيها أخذت تتباعد في تلاشي أطياف الأرباب .. وفيها في تركّز بدأت تقترب كحاشية مترائية تحيط باللامترائي أرواح عليا ومن عناصر ألوهته صفات ... في تطوّر ارتقى العقل ففي هذه الآفاق بدأ العقل يلمح ، من خلال المرئيات ، فكرة « اللامترائي » ! أجل ... لقد أُدمج «آمن» في «رع» فأُفنيت في شخصية واحدة الشخصيتان ، وبهذا الإفناء جُعل «آمن » الشمس – ثم دفعت اللاهوت الطيبي الدوافع فجعله «المَحْتَجَب »، وجعله « الخفيّ » ليُفني فيه الأرباب المنتشرة ويجعلها منتشرة منه به وفيه، إن العقل الإنساني ليجد نفسه قد تدرّج صعوديًا في سلم التفكير وشارف من القمم قمة وجد نفسه قد أُفْنيَ فيها الآحاد في « واحد » بينما دونه يقف العقل

الجماعي متمرّغا في سراب الألوهة وبين الكثرة يتقلّب .. أجل مازال العقل الجماعي يرى الإله نورا في الآفاق يتجلّى شمساً ، وأما العقل الإنساني فشيء في داخله بدأ يتململ في ميل إلى فكرة إليها قادته هذه الدوافع السياسية ، ومنها يتأرجح بين الشك واليقين، يتنازعه في فكره اللامترائي شك ويقين وأما فكرة الواحد فيرتدّ عنها كل شك فهي لديه قد غدت يقيناً .

أجل ...

لقد أفْنَى الآحاد في « الواحد » إفناءً كليًا لا إدماجا استقلاليا وإلى هذا الإفناء يقوده المنطق فإنّه : إذا كان الإله ، سواء أكان اسمه « فتاح » أم « رع » أم « آمن » ، واحداً في جوهره فإن الإله ليس محتاجًا لأن يخرج من ذاته ليكون مخصباً ... وإذن ففي ذاته كل عناصر خلقه ومنذ الأزل وهو ينتج نفسه من نفسه فهو في الوقت نفسه :

الأب والأم والابن!

لقد « تسَّع » من قبل ، بل وعرف في أنحاء واديه ألوانًا من « التاسوعات » على غرار البدعة التي ابتدعتها قديمًا « أُنّ » ... ثم عرف ألوانًا أخرى من التثليث وكان التثليث لديه يقوم على فكرة التناسل ، فالأساس فيه أرباب ثلاثة هي الإله والأم والابن – بيد أنه يجد نفسه أنه عندما أراد رياسة التثليث على التتسيع ، يدمج بعض آحاد التثليث في بعضها

الآخر ويجعلها إلها واحداً حالاً إلا في ثلاثة أقانيم وبذلك تطلع جلّية على تاريخ التفكير الديني :

« عقيدة التثليث »

لقد تطوّر العقل الإنساني فتطوّر تبعًا لذلك التثليث القديم إلى أقانيم ثلاثة لإله واحد فكما حدث في إدخال التثليث في التتسيع حُوِّر في نفس التثليث بأن ضمَّ الإله الصفات الثلاث فالإله الواحد هو :

الأب باعتبار أنه : العضو الأول في التثليث .

والابن باعتبار أنه : العضو الثاني في التثليث.

والأم باعتبار أنها : العضو الثالث في التثليث.

فالإله إذن في جميع الحالات أب نفسه وابن نفسه وزوج أمه،

الإله هو هذه الأقانيم الثلاثة بدون خروج من وحدانيته ... فهذه الأشخاص الثلاثة هي الإله في الإله بلى هي تسهم في كماله اللانهائي بعيداً عن تقسيم الطبيعة الإلهية فما هي إلا أقانيم ثلاثة في واحد متصف بكامل الصفات الإلهية :

الأزلية .

والقيام بالذات .

والإرادة الخيرية اللامحدودة !

مزج العقل الإنساني في هذا الوادي هذا المزج - حوّل

الثالوث إلى وحدة ذات صفات ثلاث جاءت بالوحدانية .. وبهذا اللون من التفكير الإلهي الجديد ، وليد الدوافع السياسية ووسيلته ، دُعّم لطيبة السلطان السياسي وغدا ربّها المحلي الإله الرسمي للوادي من إليه في تعبّد يلتفت الوادي ليراه « الكُلّ » المنتشر فيه الكل ... واحداً يعرفه باسم : « آمن رع » !

لقد أصبح « آمن رع » الإله الرسمي للوادي من فيه الأرباب واحداً بعد واحد تتلاشى، وبألوهة « آمن رع» الرسمية وبروزه كَكلّ فيه فإن الكُلّ ، برزت وحدانية من النوع الصدوريّ ! من كثافة الشرْك شرك وحدانية لا خالصة تنسّمت الأجواء الفكرية فكرة الوحدانية الخالصة .

أما الإدراك الجماعي فظلّ قاصراً لا قِبلَ له على الارتفاع إلى مصاف إدراك هذا التعريف ومن ثمّ كان تناوله كل مُمثل للتثليث البدائي وارتضاؤه له شكلا مستقلا عن الآخر به رسخت عقيدته في التثليث أن الواحد في الثالوث بشخصيته من الآخرين مستقل ... وأهمّ ثالوث عرفه العهد الطيبيّ كان يولفه :

آمن رع .

موت .

خنسو .

ثالوث يقوم على رأسه الإله الواحد المعروف

تحت اسم « آمن » هذا الإله الذي لولا إدماجه بـ « رع » ، ولولا توحيده به هذا التوحيد ، لمَا سَادَت طيبة ولمَا بلغت مأربها ولما اعتلت درجات السؤدد المتصاعدة الذي دفع كهنوتها قدما ليخلّف وراءه الكهنوت الشمسيّ الذي كان لايزال وطيد المكانة في قلب الوادي وأبدًا في ترقب وتحفّز وعلى طيبة تألبه الخفيّ غير خفيّ فمن معقله في « أُنّ » يستجمع قواه للانقضاض وفي وثوب يتوثّب ! - فليباغت توثبه للانقضاض بالانقضاض وليشهر في وجهه نفس السلاح الذي أقام قديمًا لنفسه به سلطانًا فلن يستطيع اللاهوت الشمسي أن يشهِّر بهذه الوسيلة لأن في دحضه لها لنفسه دحضًا !!

أجل ...

قويٌ الآن الكهنوت الطيّبي فمركز الوزير الأكبر ، ولهذا المركز الأهمية والخطورة في هذا العهد ، لا يشغله إلا رءوس الكهنوت الطيبيّ والكاهن الأكبر لآمن رع ، ومن ثمّ فلو باغته بنفس الوسيلة لتدعيم سلطته الكهنوتية لأحبط استعداده ، فهي نفس الوسيلة التي اتّخذها في الدولة القديمة عندما ابتدع بدعة «الإنسال الإلهي » وعلى العقل الجماعي طلع بعقيدة إن كان قد ضلّله بها ، فإنها كانت مطيته للاستيلاء على مقاليد الحكم ... وغير عسير على العقل الجماعي قبول بدعة التجسد الإلهي فهي قد غدت الآن في النفس الجماعية عقيدة محفوفة بالإيمان ! ...

لو رجَع النغم القديم جديدًا ، لوجد مرتعًا خصبًا وقبولا

إجماعيًا ، بل إن السانحة لتسنح فإن للجالس على العرش الآن، « تحوت – موسى الأول » . ابنه من « أح – موسى » لو خلفته على العرش لثبتت في يد طيبة مقاليد الحكم .. هذه هي الوسيلة وهذا هو السلاح المشهر في وجه « عين شمس » فلن يصمد الصرح الطيبي لزعازع عين شمس حتى تقوم على العرش شخصية يؤمن الوادي أنها من نسل « رب طيبة » ! وبمثل ما دوّت به أرجاء الوادي قديمًا ، يعاد من جديد رجع الصدى أن :

قديمًا ... قديمًا اصْطَفي الإله « رَدَدَتْ » وليهب لها ولداً تجلى لها بشرًا سويًا... والآن الإله قد اصطفي « أح – موسى » فتجسّد لها بشرًا سويًا... وكان أمرًا مقضيًا .. ثم بشرها قائلا : « إن ابنتك ستكون ملكة البلاد – وسأعطيها تاجي وسلطتي وستحكم البلاد لأنها من نسلي ، ابنتي » !

على جدران الدير البحري ، غربيٌ طيبة ، مازالت نشرة هذا « الميلاد الإلهي » مُعلّقة وفي سجل الزمن منشورة وبين هذه الجدران ، حيث يطوف الفكر مُفكرًا ، يهبُّ ريح الحقيقة قويًا أخاذًا رائعًا يُحدِّث أن :

الاصطفاء والإنسال والمولد الإلهي ، كان وهما وهُرَافة ومحض خيال حاكه للاهوت خيال ! .. بدعة آمنت بها الجماعات فآمنت بمجرد خرافة مؤمنة أنها من الحقائق حقيقة، ومن العقائد الصحيحة صحيح عقيدة ، وهي ؟ ..

هي بدعة السياسيّ المدثّر بدثار دينيٍّ لولاه لما آمن الوادي

من قبل أن «أوسر – كاف» كان « ابن الإله » ولما آمن الآن بأن العرش من حق « حتشبسوت » دون إخوتها من الذكور لأنها «ابنة الإله » !

لحتشبسوت ، ابنة « آمن رع » ، أُفْسح الطريق ، ومن حول «خليفة الإله» في الأرض التف رجال الإله كهنوت « آمن رع» يهمس في مسامعها بأن من واجباتها الأولى الاعتراف بفضل أبيها الذي أجلسها على العرش !

أجل ...

فلْيرتفع شأن « آمن » إلى العلياء ليشيد باسمه ، في انتشار ، على صفحة الوادي المعابد وليكن كهنوته في الذرى ولتكن للكهنوت الطيبيّ الصدارة على الكهانة عامة وعلى عين شمس خاصة ، ولتكن له عليه الأسبقية في كل مقام ومجال فإنه كهنوت أبيها المستوي على عرش في السماء ، والذي بين الآن والآن **يهبط** إلى « الدير البحري » ليرى ابنته !

كبوة !

خُرَافَة ...

ولكن !

بها قوية غدت يد الكهنوت الطيبي

فابنة إله طيبة سيّدة البلاد !

وارتدّ المدّ الشمسي جزرًا إلى معْقله في «أُونّ» وفي مجرى التيار الزمني الجاري سكن يراقب عن كثب تحول الأحوال

والتيار الزمني جارٍ يُطوى وينشر .. هذه « حتشبسوت » يطويها خضمّه ، وهذا « تحوت موسى الثالث » على شاطئه ينتشر وبانتشاره تغيب أعوام سلم وسنين حكم حكيم ، وتنتشر أعوام حرب وسلاح وسنين فتح وإرضاخ تؤكد سلطان مصر السياسي في الخارج على من أغرَّتهم الأعوام السلْمية طويلة المدَى بالتألب والعصيان - قُمع عصيان فلسطين والشام وأرض النهرين - أُفني خلفاء الهكسوس وأصبحت مصر سيدة الحيثيين وسيدة لبابل وآشور - سيدة الدنيا غدت مصر ، فالظلّ فيها يمتد طاوياً البقاع الواقعة من الشلال الرابع إلى أعالى الدجْلة والفُرَات حتى غربي آسيا ، غامراً جزر البحر الأبيض ...

لقد حقق « تحوت - موسى - الثالث » حلم « أح - موسى - الأول » بإمبراطورية مصرية لها الدنيا تدين ... أرجاؤها تدوي بسيادتها سياسياً ، لها طيعة تطيع الأمم الأمر المفروض وفي خزائنها تفرغ ما في خزائنها في صورة الجزية عاماً بعد عام!..

ولكن !

هذه الإمبراطورية القائمة إنما هي سيادة طيبة و « آمن رع»!.

إن تحوت موسى الثالث لا يعود من فتوحه إلاّ ليقيم المسلات ويعلن لآمن رع ولاءه اعترافاً بفضل رعايته له ومساعدته إياه في الحرب .

هذه السيادة إنما على وجه أصبح سيادة الكهنوت الطيبيً فلهذا الكهنوت تنحني في إجلال الدنيا ، وإليه في تطلّع تشرئب الشعوب .. ترى فيه قوة « آمن » ، الإله الذي إلى هذه المكانة قد رفع شعبه حتى مختالا لَقَّب نفسه « **بالشعب المختار** » !

أجل ... سيادة « آمن » إنما هذه السيادة ، فقد زادت من مكانة « آمن » وكـــهنوته تمكنًا على تمكّن بل مما يزيد هذه السيادة الكهنوتية قوة على هذا المال المتدفّق من الخارج ، من الجزية المفروضة على البلاد المغلوبة ، ومن الهدايا المتصلة المقدّمة تقرّبًا إلى السيادة السائدة ودرءًا لعدوانها ... هذا المال أثري الدين الآمني ووضع الثراء في يده قيداً ، ذليلا به غدا العقل الجماعي !

بلى

مذ قام « أح موسى الأول » يغزو فلسطين والقدس والشام وإلى الوادي بدأ من الخارج يتدفق المال وعليه ينهال ليكوّن للغد كنوزه ... هذا المال المتدفق مذ «أح موسى الأول» حتى « تحوت موسى الثالث » ، عامًا بعد عام إلى جانب منهلّ الهدايا ، كان النصيب الأكبر منه نصيب الراعي للوادي ، الإله الذي إليه أتى بهذه السيادة وهذا المال ،

« آمن » ربُّ طيبة !

أجل ...

ثريًا غدا الكهنوت الطيبيّ تملك يده الآن إلى جانب شاسع الأراضي في الوادي ، مدنًا برمتها ، بإمائها وعبيدها ، في الشام وفلسطين - غدا الغنيّ ، القادر ، الجبّار... وإذ تطالعنا في هذه الفترة الزمنية من التاريخ الإلهي للإله صفات الغنى، والقدرة ، والجبروت ، صفات قط لم تكن للإله من قبل ، يطالعنا الوادي طروبًا فقد أطربه التكبير المدوي ممَجِّدًا الإله الواحد الذي جعل مصر سيدة الدنيا وجعله فوق الشعوب طرًا.. الشعب المختار!

فلا غرو إذن أن تغدو معابد « آمن » أكبر المعابد وأهمّها وأن ترتفع على صفحة الوادي المسلات ، كلّ منها سبابة تشير إلى دين آمن .

ولا غرو إذن أن تلتفّ الجماعات من حول كهنوت هذا الدين ، ومتقربة إليه .. منه تقترب - نست كل شيء إلا المجد الحاضر وكأن مجد عين شمس قد أضحى في جفن الزمن أضغاث أحلام !

ولكن ...

من معقله في « أُنّ » جثم الكهنوت الشمسيّ يرقب عن كثب مآل الأحوال ومن حوله التيار الزمني جارٍ ، ومن يديه سلطة زمنية بعد سلطة زمنية تهوي ، ففي يديه من الأمر لم يعد باقيًا إلاّ كل ما قد أصبح في ذاكرة الوادي ذكرى ...

إن « آمن » ربٌ مهمل التاريخ ، لم تكتسب كهانته قوة إلا بادعائها ربًّها باسم مركّب من آمن ورع فتوسلّت برع لتوحيده بالإله الشمس .. وهذه قوة مكتسبة ما كانت قط لتكون له ما لم يك قد وُحّد وربّ عين شمس !

ومن ثمَّ فإذا ما أريد إحباط « آمن » وإضعاف الكهنوت الطيبيّ فالوسيلة هي : **فَصْلُ** آمن عن رع !

لتثر حقوق « رع » !

لتثر حقوق الإله الشمس ، مَنْ إليه الوادي عابدًا يتحوَّل ناسيًا فيه « رع » وذاكرًا فيه « آمن » فلن يقوّض لآمن وكهنوته سلطان حتى يُفْصَلَ « رع » عن هذا المدّعي ، والوسيلة لهذه الغاية هي :

العرش !

وعاد الكهنوت الشمسي إلى مكمنه يتحيّن الفرص عبر التيار الزمني الجاري.. هذا « تحوت موسى الثالث» في راحة الزمن يروح – وهذا « آمن حتب الثاني » يقوم يحيط به من الأبناء ابن فتيّ، تلوح أن به قد سنحت السانحة فإن بقران الأمير «تحوت – موسى » ، هذا الفتى الحدث الذي لم يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة ، من ابنة ملك ميتاني ، يربط النسب برابطة المودة السياسية بين مصر والشام ، بين هذه وتلك المقاطعة الواقعة في شمال الشام ، حيث تُعْبَد الشمس كنور

متجدد ورمز رامز إلى الإله المعروف لديها تحت اسم « عدن » أو أدون !

ولكن ... يعترض طريق هذا الفتى الناظر إلى العرش إخوة أكبر منه سناً ومنه ، حسب التقاليد المرعية ، بالعرش أحق ..

بالفتى المُتوثّب إلى العرش ، وبالعنصر الآري الدخيل بالزواج العابد الشمس كمظهر من مظاهر الإله الواحد، أحاط الكهنوت الشمسيّ .. أحاط مؤلّبا :

ماذا لو أفسح له إلى العرش الطريق ؟

كلا !

لا يريد الكهنوت الشمسي مقابل هذا الأمر شيئًا إلا النذر الطفيف !

ردّ مهدور الكرامة !

ثم .. وبالعنصر الآري الدخيل ، محرّضاً أحاط :

ما عدن أو أدون ، وما آتوم ؟ !

ما عدن رب ميتاني، وما آتوم ربّ أنّ إلا إله واحد فكلاهما إنما مجازًا الشمس، كلاهما :

«آتن» !

وآمن ! ؟

آمن رب مدّعٍ لا صلة له بالشمس – لا صلة له بآتن !

يصمت التاريخ لحظة ليتكلم بعدها معلنًا ارتقاء الفتى إلى العرش باسم « تحوت – موسى الرابع » ، يحفُ به الكهنوت الشمسيّ مباركًا معلنًا قيام : « ابن آتوم .. مُنْقِذْ حور أخْتي .. المُطَهِّر أُنّ ، المرْضيّ رَعْ » !

بل وليكفل اللاهوت لنفسه سيطرة على العرش ، جاء من جديد يردّد العقائد القديمة في وعي الزمن .. لإخضاع العرش لإرادته أعاد عقيدة « التجسد الإلهيّ » جديدة ولكن بلون صارخ ترك صارخ تأثيره في العقل الجماعيّ بتلك العقيدة :

« عقيدة روح الإله وابن عذراء »

الحائط الغربيّ لمعبد الأقصر سجل آخر للون ديني آخر من عقيدة التجسّد الإلهي ، فعليه منقوشة السطور تحدّث : أن الإله قد اصطفي « متمْوا » ولها بشرًا سويًا تجلّى فحملت بأمنحوتب وهي بعد عذراءُ .. وأن الإله قد بشرّها به قائلا :

« أمنحوتب هو اسم من به ستحملين ... إنّه سيكبر وسينمو **وسيحكم البلاد** للنهاية فإن فيه **روحي** ! »

عذراء، بروح الإله، حملت «متمْوا» ولأمنحوتب الثالث ثبّت عرشٌ ولكن.. كبلّت بالعقيدة العقليّة الجماعيّة !.. عقيدة كمنت في طواياها فقد طاب لها أن ترى على عرش البلاد :

«روح الإله وابن عذراء » !

بدعة !

بدعة ابتدعها اللاهوت ليصون بها العرش من طمع الطامعين ودعوى الأدعياء .. وقبل العقل الجماعي المشبَّه « بقطيع القطعان » دعوى الدين وتلفّت في أرجاء دنياه فخورًا بأنّه دون الشعوب طرًا « المختار من الإله » فعلى عرش الإمبراطورية يجلس « ابن الإله » !

أجل ...

كَبَلَت العقليّة البشرية بهذه العقيدة لهذا الدين الرسمي في هذا العهد الذي سادت فيه مصر الدنيا فرنت الدنيا إلى مصر - فالعهد عهد عرفت فيه مصر حركة تجاريّة واسعة النطاق فإلى أسواقها تقبل القوافل وعن أسواقها تروح إلى بلادها قافلة، فتقبل بعقائد وتروح بأخرى لها رنين في النفس !

إلى طيْبَة وأسواق طِيْبَة تحمل جزر البحر الأبيض وشواطئه سلعها التجارية ... وعلى صدر طيبة التقى العنصر بالعنصر واختلط الجنس بالجنس ، وتلاقى في احتكاك الرأي بالرأي والعقيدة بالعقيدة والمذهب بالمذهب ولكن الغلبة دائمًا معقودة للعقائد المصرية فمصر ، سيدة تلك الدنيا ، ذات سيادة من النيل تمتدّ حتى الفرات وإلى عقائدها تلتفت وتلتفّ العقليّة الجماعية في خشوع ! ..

هذا الامتزاج في المدن والأسواق - هذا الاحتكاك الرأيي والعقيديّ والمذهبيّ ، عوامل كانت لمزج العقائد وإلى جانبها كان هناك عامل آخر ، فالبلاط ، بلاط أمنحوتب الثالث ، بلاط مصريّ

الصيغة سوريّ الروح كاثر من آثار « متموا » ... كما يطالعنا أثر مهم من آثار هذه الدولة هو نتيجة حتميّة لعقيدة التجسّد الإلهي وهذه نتيجة طبيعية تلج بنا مشكلة مهمة من مشاكل الدين وهي :

« المكالمة الإلهية »

المكالمة الإلهية ليست بعقيدة دينية جديدة وإنما بلغت أوجها في العهد الطيبيّ غداة طلعت « حتشبسوت » من في المخيلة منها قد أودع اللاهوت الطيبيّ عقيدة بنوّتها للإله .. فإذا كان الإله لها أبًا فمن الطبيعي أن يهبط « الأب » من سمائه لزيارة ابنته على الأرض ، ومن الطبيعي أن تطلع ابنة الإله عن عقيدة تقول كلّمني الإله ! ..

من السهل أن يكون الحاكم للإله كليمًا ...

أجل ..

المكالمة بين الإله ومَنْ في يده الحكم عقيدة الدنيا القديمة وظاهرة في آفاقها طبيعيّة ومن ثمّ كانت أكثر القصص التي تصاحب الصور المنقوشة على الحائط مكالمة بين الإله والمختار أو الكَلِيم .

عهد وطّدَت فيه العقيدة بالمكالمة الإلهيّة ومن النتيجة الطبيعيّة أن تؤدّي هذه العقيدة إلى عقيدة نراها في هذا العصر وطيدة هي :

رؤية الإله وجهاً لوجه !

يهبّ من ثنايا هذا العصر ما ندرك به أن أمنحوتب الثالث، مَنْ في مخيّلته أيضًا قد أُودع أنه روح اللّه وابنه وابن عذراء ، قد اشتـهى أن يرى أباه ، يرى الإله وجـهًا لوجـه ، وعـذّبه الشـوق وأضناه فشكاه لسميّه أمنحوتب .

وأمنحوتب ؟

أمنحـوتب « نبي » آخـر من أنبـيـاء مـصـر القـديمة له في المتحف المصري تمثـالٌ فـيـه يطالعنا شيء وراء الفن الطيِّبي .. يطالعنا السياسيّ القادر تحت رداء القدسية ، فالقدسيّة رداء وقفٌ على من تلحق باسمه شهرة : السحْر !

أجل ..

كان السحْر علْم العصر وشهرة أمنحوتب « النبي » فيه قد طبّقت الآفـاق ، ومـا على بعض أوراق البـردي من « كـتـابات سحـرية » فـإنما إليه تُعْزى . عـرفتـه مصـر قديسًا نبيًا وله في القلب مركز لا يضارع فالتماثيل له تقام وآيات المديح عليها تنقش والقصص عن عجـائبه أو معجـزاته تحدث وتحفر في الوعي البشري ذكراه **نبيًا في يده القدرة على السحْر** .

ولكن !

لأمنحـوتب يعرف التـاريخ السـياسيّ غيـر ذلك ففي ثنايا صفحاته يطالعنا الداهية والمعول الخفي الذي عوّل عليه الكهنوت

الشـمـسـيّ في هدم الكهنوت الطيـبي فـهـو الذي منح بركـتـه لأمنحـوتب الثالث وعليه أقبل مباركًا يبارك فيه « وريث عرش آتوم» ... ومن ثمَّ فـإذا أراد « وريث آتوم » أن يرى الإله وجـهًا لوجه فعليه أن يطْرد « الدنسين » !

أوغر « أمنحوتب » النبي صدر أمنحوتب الملكْ ضدّ كهنوت طيبة ، وبإيعاز غير مباشـر أوعز إليه أنه لن يمكنه إطفاء لظى الشـوق المستـبد إلا إذا طرد هؤلاء الذين دنّسـوا قدسـيّة «آتوم» فبدأ في ذلك فعلا وعلى توالى الأيام نرى إقفار المراكز الرئيسية من أردية الكهنوت الطيبي ... لتظهر أظهر ظاهرة في بدء تضاؤل مـركـز الكهنوت الطيـبي إذ نرى أن منصب الوزير الأكـبـر الذي كان يشـغله « فتـاح موسى » رئيس كـهنة آمن والذي بوفـاته قد شـغر لا يملؤه خليـفة له وإنّمـا يحلّ مـحلّه « رع - مـوسى » من الكهنوت الشمسي من به فُصلت السياسـة الزمنية والدينية ومنْ في قبره نرى للدين تطورًا من لون إلى لون .

أجـل ...

إن الزمـن الجـاري قد جرَى فطوى لتـحوت مـوسى الرابع حكمًا قـصيرًا «١٤٢٠ - ١٤١١ ق . م » ويقـيم أمنحوتب الثالث على الحكم صبيًا دون الثالثة عشرة ، حكمه حكم «متموا» ذلك العنصـر الآري الذي بدأ يحكم البلاد من بلاط مـصـريّ الجـسم سـوري الروح ، أترعـه الأصـفـيـاء من الشـام ، والمقـربون من

أصحاب الرأي الحر والمتحيزون إلى بين الشمس ضد ما يدّعيه كـهنة آمن ولاهوت طيـبـة ، وعلى رأس هؤلاء الأصـفـيـاء من المستشارين يبرز على صفحة التاريخ السياسي في صدد التفكير الديني « يُواو » السياسي المحنك الذي بلباسه الكهنوتي يقف الآن إلى جانب « متموا » راعياً للصبي الذي رغم هذه السن المبكرة قد أضحى زوجاً لابنته « تي » صبية مثله وملكة قصر فيه العِبادة تُوّجه إلى « أودن » المتجلي في «آتن» !

إن التيار الزمني ليأتي إلى « أُنّ » بعد جذر بمدّ جديد لأحداثه تهش « أُنّ » وتطرب لمرآى « متمْوا » طالعة على صفحة الوادي تحتضن بيد الصبي وبالأخرى الصبية متجهة بهما إلى الشمس - إلى « آتن » تريهما فيه معاً الإله السوري « أدون » . وإله أُنّ « آتون » !

ما أسرع مرور الزمن .

هذه الأعوام تتجمّع لتبلغ الثلاثين وأمنحوتب الثالث يحكم البلاد من فوق عرش صرفه إلاّ عن اللهو والصيد وصرفه واسع الثراء عن دنيا الحرمان والفاقة ، إلى تجميل الوادي وبالأخصّ العاصمة ، فإلى هذه العاصمة تأتي من كل صوب الدنيا .. إلى أسواقها تحمل القوافل البريةُ والبحرية ، وفي أسواقها بما تحمل تلقي - من الصومال ، من جزر البحر الأبيض وشواطئ فينقيا ، من قبرص وكريت وأورشليم والقدس ومن سيناء - قطّ

لم تجتمع في الوادي من قبل هذه الكثرة من الألوان والأجناس المتباينة المختلفة ، وقط من قبل لم يحتك الرأي بالرأي ولا يمثل هذا الخضاب من قبل خضبت الطباع الطباع - الدنيا لمصر دانت فأقبل إليها الكل وكلّ إلى بلاده عنها يروح حاملا لونًا جديدًا، في طباعه، وعاداته، وتقاليده ..

أجل ...

ما أسرع مرور الزمن ! ...

في لُجة الماضي هوت الأعوام وإلى جانب أمنحوتب الثالث « تي » ... ولكن عن لهو الملك لاهية ، عن اللهو يلهيها عمل السياسة ! .. لقد تخطت صبية الأمس الأربعين من العمر اليوم، وللقوة الكامنة فيها قديمًا قد أنمت الأيام .. تقبض قبضتها القوية على قبضة الملك المتراخية ، وعن هذا الطريق تحكم بلاد عرفت لها تأثيرها فاعترفت بقوتها ، فما من تمثال للملك يقام إلاّ وإلى جانبه لها يقام تمثال وعلى صفحة الوادي مازالت قائمة لها تماثيل يطالعنا منها ذلك التأثير الذي امتدّ حتى سيناء، حيثُ وجد لها هناك تمثال ، وحيث تطالعنا أحداث تلك الأيام بأمانيها وأحلامها ، بمخاوفها وأفراحها إلى جانب أتراحها ، ففي تينك العينين مرتسمة مازالت تلك النظرة الحائرة في ثبات والثابتة في حيرة ، المطمئنة إلى حقها وقوتها ولكن يفزعها ثراء الكهنوت الآمني وتوثبه للوثوب على العرش ... وأما على جبهتها فمرتسم

ذلك الحلم الذي عليه طيلة العمر طاف راسماً إمبراطورية « مصرية - سورية » لأطرافها معقودة منها الأطراف !

إن فكرة هذه الإمبراطورية لن تتحقّق إلاّ **بوحدة دينية!**

بدين واحد إلهه إله واحد يعبد من شلالات النيل حتى أقاصي الفرات لن تستطيع قوة ما هدم هذه السيادة ... ستصمد لزعزع الدهر هذه الوحدة السياسية.. وليس من ألوهة تفي بالفرض كألوهة الشمس : «آتن» .

ليس كالشمس إله يجمع بين أطراف البلاد الشاسعة بأواصر لا تنفصم له عراها ، فواحد هوهنا وهناك . وحيثما كان الإنسان هناك أو هنا فله في الآفاق نور يتجلّى ثم، ثم هو يُعْبدَ هنا وهناك تحت اسمين مختلفين وليس لهذا من معنى فهو واحد سواء أنادته الشفاه هناك : آدُن أو عرفته الشفاه هنا باسم : آتن ...

من ثمَّ فلتثر **جديًا** ، حقوق الإله الشمس القديم ضد ما يدّعيه « آمن » وكهانته وليُفصل **جديًا** رع عن آمن ! ..

لن يفصل بين آمن ورع إلا بمنح الإله الشمس اسمًا جديدًا تُثَار به حقوق « أُنّ » ، وفي نفس الوقت يَتَحتَم أن يكون اسمًا يُدْرأ به ثائرة « آمن » ، كما يتحتم أن يكون في نفس الآن اسما يحَقّق الحلم لهذه السيادة « المصرية - السورية » ... اسمًا رنينه ووقعه هناك نفس رنينه ووقعه هنا ، وليس من اسم كاسم

القرص الماديّ للإله نفسه :

« آتن » !

أجل ...

فَليُدْعَ الإله الواحـد **باسم الشمس نفسها** مُجرّدة من اسم أي إله آخر ، ويكون اسمها على ألوهته علَمًا ... إنها الوسيلة التي ستُقْصي عن « رع » « آمن » وتفصل « آمن » عن الشمس فصلا، وفي آن الآن لا يستطيع معترض الاعتراض فإن الألوهة لم تخرج عن تأليه الشمس فآتن هو جسم الإله والإله هو متجسّم في آتن !

ثم .. آتن اسم يجمع بين مصر والشام ففيه من المصري « آتوم » وفيه من السوري «آدون» وكلاهما الشمس : « آتن » .

إذن فَليُهْتف بالاسم حتى تجلجل طيبة بالهتاف ، وليرجّع في أرجائها الهتاف دويًا ، ولينساب الدويّ بمن إليها يأتي ومن عنها يروح فترجّعه أصداء فيه من رجع الصدى ترجيع بأن للوجود مُوْجدًا واحدًا هو الإله العالمي المتجلّي في الآفاق نورًا، المرسل نوره على الكل ، وأن : آتوم وآدون هو ... آتن !

آتن ؟

لنفسه تلفّت الوادي وسرى فيه الهمس دويًا :

إن هذه لنغمة في لا جدتها جديدة!

منذ القِدَم ومصر القديمة تعرف القرص الشمسي باسم «آتـن » ، **فليس في الاسم شيء من حيث الشكل جديد ولكن المعنى ، الموضوع ، المقْصَد** فشيء آخر ، فإن في هذه الرّنة الجديدة لحنًا قديمًا فيه للماضي ترجيع وفيه لمجد عين شمس تمجيد ، بل تشهد الشواهد وتدلّ الأدلة على أن الاسم ما أُدْخِل إلا لمحض التضليل والتمويه ! ... منذ القِدَم و « آتن » للقرص الشمسيٍّ في الوادي اسم ، بيد أن لأول مرة يدخل اسم « آتن » كاسم مُرادف لمعنى آتوم ربٌّ « أُنّ » !

إن الأحداث تجري فأمنحوتب الثالث يقضي تاركًا « تي » وقد تجاوزت الحلقة الخامسة من العمر ، وصيّة على عرش يعتليه ابنهما الصبي ذو الاثني عشر عامًا والذي من حوله يَلْتُف الكهنوت الشمسي ومحتفلا ينصبه « الكاهن الأكبر لرع المبتهج في سمائه **باسم الحرارة التي في آتن** ! »

في هذا الصبي المعتلي العرش باسم « أمنحوتب الرابع » والمخضبة دماؤه بالآرية يتمثّل العقل الإنساني في أول صورة معروفة في تاريخ الفكر فالنفس منه مرآة صافية لألوان الوجود تعكس ، والقلب منه منبع للحب وفي مسامعه ، منذ وعي، الصوت يُردّدان ألوهة «آتن» هي الألوهة الصحيحة وأما « آمن » فإله مُدّعٍ ... ومن ثم نما في قلبه حب « آتن » بقدر ما في القلب منه نمت كراهية « آمن » ويدعّم هذا الحب تنصيبه كاهناً أكبر

لرع ، وهذا منصب له خطورته في تاريخ الدين الشمسي والألوهه الشمسية إذ يصاحبه دائمًا لقب « نبي » وتلازمه عقيدة تودع في وعي صاحبها أنه قد بلغ بها درجة تُخوله الاستعداد لتلقي الوحي والاستماع إلى الصوت الإلهي ...

أجل ..

لـ « تيّ » كان « أمنحوتب النبي » صديقًا بارك على جبينها الحلم الحالم بإمبراطورية « مصرية – سورية » تربطها وحدة دينية لتحقيقها كان الاتجاه إلى « آتن » حتمًا وطريقًا مرسومًا وبمساعدة هذا « النبي » دفعت يدها القوية دفعًا « أمنحوتب الرابع » ، ليطلع على التاريخ الديني ، باسم آتن ، دينًا جديدًا فيطالعنا : .

الدين الآتني في معترض المذهب الأوزيري وأديان الشمس

إن الأعوام تمرّ ونحو النضوح بأمنحوتب الرابع العمر إلى الشباب قد سار فنضج به، ناضجًا، حب « آتن » نضوجًا أبى به إلاّ استبدال اسم أمنحوتب باسم من يراه «المانح الحياة» ويرى نفسه فيه حيا ، ومن ثمّ فاستبداله باسمه الاسم الذي نعرفه به على صفحة التاريخ السياسي :

« عنخ آتن » من فوق تلال « تلّ العمارنة » أعلن « عنخ آتن» ألوهة آتن ووحدانية لا ترى إلا « آتن » إلهًا فأتى بوحدانية استهلّت خطاها مادية بحتة ... مادية لا ترى إلا آتن أو الشمس

إلهًا يُعْبدَ وليعبد يتجلى في الآفاق نورًا ... بيد أن كما تسير الأيام به وبه تتخطى من العمر مرحلة التفتّح نرى في ميل إلا المجرّدات والمعنويات به النفس تميل فإن في انصراف عن «آمن» وانصراف إلى « آتن » انصرف « عنخ آتن » فصرفه هذا الانصراف إلى الحبّ ! .. واجترفه الحبّ من مخالب المادية إلى رحاب المثالية وطفرت به المثالية من اللامجرّدات إلى المجرّدات ففرغت الشمس من الألوهيّة ! ... إليها متجهًا لا يراها إلهًا – ليس هو هي وليست هي هو وإنما هي من ضوئه ضوءا

كالروح – من روحه روحًا !

فالإله العالميّ ليس آتن وإنما الحرارة التي في آتن !

قط لن يكون الإله العالمي هو «آتن» ... فإنما « آتن » شيء مرئي والإله الحق ينبغي أن يكون من صفاته التجرّد – تَعَالى عن أن يكون المُتَعَالي إلا المجرّد في المترائي وأن يكون إلا الحقيقة القصوى من وراء هذا المظْهر ، ومن ثم فيقينًا أن الإله العالمي ليس « آتن » وإنما هو قوة مظهرها « آتن » أو الشمس !

نزعة حبّ من ألوان الحبّ الصافي صافية بـ « عنخ آتن » هبّت تفجرت بها منه ينابيع القلب تفجّرًا عن ألوان من الفناء المُسْتَطاب ، وجَرَت تحتفر أسس وحدة دينية ونظام مترابط تستبدل فيه الوحدانيّة اللاخالصة بوحدانية خالصة لا شرْك فيها لدينٍ واحد يتجه عابدًا « الأب الذي في السماء » ...

إن فكرة الحق أو « معات » تميِّز هذا الدين .

ورمز « آتن » أو القرص الشمسي الذي تمتد منه اليد في كل اتجاه حاملة « عنخ » أو مفتاح الحياة إنما تمتدّ للجميع ولكلّ كائن حيّ !

إن الرمز الجديد « للإله » هو الإله القديم - الرمز الحديد للامرئي هو آتن المرئي !

بلى ...

إن عنخ آتن ، قد اختار الرمز الجديد ، الإله القديم ففي الدولة القديمة كانت أشعة الشمس تمثّل بذراعين : ويمثّل الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرقة تنتشر على الأرض وتنتهي بهيئة يد بشرية تحمل **صليب** الحياة : عنخ !

من ثمّ فما لهذا الكهنوت بألوانه المختلفة تُعجّ صفحة الوادي ، وواحدًا إنما « الأب السماوي » ، لا شفيع ولا وسيط إليه يؤخذ وإنما بينه والإنسان الصلة موصولة مما يجعل الدين للكل واحدًا ! ؟

بالتدين الشخصيّ استُبْدِلت الوساطة الكهنوتيّة فللفرد الاتصال بربه اتصالا مباشرًا دون حاجة إلى وسيط فهو للكلّ أب والكل لديه وأمامه سواء ... وإنما قانون هذا الدين الحبّ وللحبّ قانون أساسه الاستقامة بكلّ أوجهها ومعانيها ، وأبرز وجه لها الشرف وأما أوضح معنى فالصدق ..

فلتهوِ من ثمَّ الأديان الشمسيّة إلى الحضيض فليس هناك إلا دين واحد صبغته عدم الشرك وطبيعته كطبيعة الإله ! .. الفرَح والجمال .. وأما شعائره فالشعور !

أجل ...

شعائر هذا الدين الشعور .. إلى « الأب السماوي » يتّجه المرء مُعَبراً عن حبّه، شاكراً منحه إياه الحياة .. يتجه المرء للإله عابداً لا عبادة العبد للسيّد وإنما عبادة الحبيب للحبيب ! ...

ومن ثمّ فلتُؤد الصلاة للواحد الصمد شكراً وحباً لا مخافة وفزَعًا ، وإلى « آتن » يتجه قبلة في توجّهه إلى منْ « آتن » له مظهراً

إن بين زهر ينثر وطيْب يتضوّع وبخور يطلق ترتفع أناشيد الدين الآتني إلى المُجرَّد ومَنْ « آتن » له رمزًا .. ومسبحة بحمده إليه توجه الصلوات في المشيّ وفي الإبكار .

كلا ... !

لا مُحْرقات ولا دماء تُرَش ولا لحوم ترسل عَبْر النار إلى الإله !

لأول مرة في تاريخ العقل البشري يتسع الأفق الديني وتُحوم فيه روح الصفاء - ولأول مرة يخضّب منه الرحاب بألوان قزحيّة هي للصوفية العقلية خضاب تنساب فيظلّ الفكر لون كالنغم ، مختلفة في امتزاج وانسياب منه الألوان - لونٌ لايرى

فيه الكلّ إلا في وحدة ولا الوحدة إلا في كل - لون به يبرز دين واحد من طبيعته أن تتلاشى فيه ما سواه من أديان ..

لا غــرو إذن أن يطوّح العــقل الإنســاني في خطواته هذه بالأديان المادية ذات الصــيغَ والصــبغْ والطقـوس البُدائيـة ويحـاول فكّ الأسـر الجمـاعي بتحطيم قـيد قـيود الدين الرسميّ .

فاللون من الفلسفة الصـوفيّة لا يعترف بلون من ألوان هذه المادية فالعبادة لديها توجه إلى المجرد بصورة تجردية - لا غرو إذن أن يُطوِّحْ هذا الدين بأديان الشمس ، اسـتجابة لهـذا اللون الصوفيّ ، وأن يقفوها باللون الآخر لمذهب أوزير ! ..

أجل ..

هذا اللـون من التـفكيـر الدينيّ لا يعـتـرف بقـيامـة أو نشـر جسد بعد موت وردّ رميم عظام فهو لا يعترف للجسد ببعث بعد فناء ولا بحسـاب ميزان ولا بشيء من هذه الصـور المادية الفجّة التي جاء بها مذهب أوزير ! ..

كلا .. !

ليس عن منطق عقلي وليد تفكير رسـين وإنما عن شعـور شـاعـر وإحسـاس مـرهف أداته البصـيرة أو الحـدْس - إن دينه الحب والحب دينه. والحب كدين ، يشفق على نفسه من أن يكون الخلود الأوزيري له خلودًا ..

ومن ثمّ طوّح هذا الدين بالعقيدة الأوزيرية تطويحه بأديان الشمس !

إن الإنسان لا يفقد بالموت إلاّ جسدًا يخلّف منه الذات أو الشخصية التي لها نفس صورة هذا الجسد أو بعبارة أوضح ليست الذات على شبه الجسد وإنما الجسد هو الذي يأخذ بتغليفه لها منها الشبه ، ومن ثمّ فالموت إنما ظاهرة لا تؤثر إلا في الجسد وقطّ لا تنال من الشخصية أي منال بل على العكس فموت الجسد حياة للشخصيّة ذات **الجسد النوري** - الموت إنما تحرير الذات من هذا الغلاف وفك أسرها من هذا القيد الحائل لها دون الانطلاق جسمًا نورانيًا إلى رحاب الإله ! . .

كلا ... !

لا شيء من « جنة أوزير » الموعودة بعد الحساب يوم تشهد الأيدي والألسن بما قد فعل الإنسان ، نجده في هذا الدين الآتني ، فالملكوت الإلهي يختلف عن مذهب أوزير كل الاختلاف:

« إن الملكوت السماوي ، الجنّة ، إنما في داخلك » !(٢).

«عنخ آتن » .

والنار ؟ ! ...

كلا ... !

لا شيء من هذا أيضًا فالملكوت الإلهي من الشر خلا - يمحق الشرّ نفسه بنفسه ونهايته الإبادة فلا نار في الخارج

فإنما النار في داخلك أيضاً ضارمها منك فيك الضمير !

نَشَرَ العقل الإنساني في تمثله بـ « عنخ آتن » الجنة والنار في طوايا الإنسان ، فَقَلَبَ الأوضاع وجعلهما معنويينْ ومعنين مجردين .. جاء بنظرة جاءت كنتيجة حتميّة لهذه الدعوة الدينية القائمة على أساس من الحب الصوفيّ الذي تلاشت أمامه التمييزات الكيانيّة فتبدّت له نفسه و « الكل » واحداً أحداً فلا وسيط ولا شفيع ولا كهنوت يقف دونه والإله ! ...

واهتزت آفاق الوادي استجابة لهذا الدين ...

ولكن ! .. حتى الآن كان الكهنوت الشمسي راضياً لا يرى في الترنم باسم آتن إلا صوت الفَصْل بين آمن ورع وأما الآن ؟

الآن يجد نفسه يتململ شأن الكهنوت الآتني - فالآن، وبـ«عنخ آتن » الأعوام قد قربت به من الحلقة الثالثة من العمر، يتجه اتجاهاً مغايراً وينحرف انحرافاً كليّاً عن الطريقة التي قد اختطها قديماً بـ « تحوت موسى الرابع » فهدده ألوهة جديدة تنكر الشمس ودينه تستنكر !

دين جديد به يهوي آتن أو الشمس مِنْ ألوهة إلى مُجرد مظهر للألوهة وهذا إنكار مباشر لإله أنّ وتنكّر مباشر لسلطان عين شمس السياسي .. دين جديد لإله جديد يطلع به ناضجاً « عنخ آتن » وبالتبشير إليه ، من على العرش ، يضطلع ومِنْ على تلال تلّ العمارنة يسمع الصوت منه للموجود مناجياً :

« أنت الإله الحق ! »

« عنخ آتن »

بل من « تل العمارنة » ينساب الصوت الأخناتني إلى الوادي يُرجِّه رجًا بنشيد راح فيه للمُجرَّد منشدًا :

«إن الإله الحق **ليس بجسم** !

إنه الرب من سوَّى نفسه بنفسه ..

إن الإله قد فطر نفسه ولكن صورته غير معروفة

خفيٌّ الشكل ! »

« إن الإله الحق لا شكل له ولا صورة ! »

« عنخ آتن »

أجل ...

على الوادي ليست الوحدانية بجديدة ولكن اللون منها هو الجديد ... إلى أكثر من عشرين قرنًا من الزمن قبل هذا العهد والبذور منها في تربة النفس ملقاة .

ولكن ...

قط لم تك صبغتها الصبغة ! كانت وحدانية لا خالصة ومادية الطبيعة والطابع ، وأما هذه فوحدانية خالصة روحية التعبير روحانية المعنى تأتي بإله مجرَّد فتأتي بإله للفهم الجماعيِّ في مختلف مذاهب غير مفهوم بل تحاول للبناء الكهنوتيِّ تحطيمًا ! ...

أجل ...

إن من الشـمـس إلى مـا وراء الشـمـس ومن المرئي إلى اللامـرئيء تغلغل الفكر الإنسـاني بـ « عنخ آتن » وبه تحـول التفكير الديني من الوحدانية اللاخالصة إلى الوحدانية الخالصة وتطوّرت من مـادية إلى مـثالية تفـوح من ثناياها عطر الصوفـيّة وصفو تعـابيرها وتعبيراتها ، فـأخناتن يريد وحدة دينية لدين صـوفي فـهو قد غـدا لا يرى إلاّ اللامـترائى إلهًا ... بتـسبيحـه تنطلق حنجرته وبقوة يفـرد لـه مكانة يهوي بها بكل الأرباب فـلا تحـفّ بـه مـن الأربـاب طوائف ولا دونـه يقـف أرباب مـنه أدنـى ، فإنما هي وحدانية مطلقة وألوهة خالصة فإنه هو :

« الإله الفرد » !

« عنخ آتن »

الإله الفرد ؟ ...

هذه نقمة أخرى جديدة بها « عنخ آتن » يأتي.. يأتي بما لم يأت به أحد من قبله قطّ !

إن النغمة لـها مـعناها ورنينها له مـغزاه ويفـهمـها الوادي عـهد ذاك فـعـهد ذاك ليس بخـفـي منهـا المعنى ولا منهـا المغزى ففـيهـا لأصل آلـهة الوادي تقريعٌ . فـيها تنديد وفـيهـا انتقـاص، ففيها عنخ آتن يقول للوادي عامة وللكهانتين المتناحرتين خاصة :

إن الإله الحق ليس كرع وليس كـآمن وإنما هو أبدًا وأبدًا :

«الإله الحي » !

« عنخ آتن »

الإلهُ الحيّ ! ؟

إن النغمة قد ازدادت وضوحًا على فردية اللامترائي ، بل إن « عنخ آتن » يخرج النغمة إلى حيز الوجود المحس حقيقة واقعة من ثنايا شفتيه المنادية إنه هو : « الحيّ الذي لا يوجد بجانبه إله آخر ! »

« عنخ آتن »

فلتحطّم تماثيل الأرباب حيثما وجدت ولْيُمْحَ محوًا تامًا حيثما تقف اسم « آمن رع » !

ليُمْحَ اسم « آمن » حتى يُمحى من ذهن الوادي ووعي الزمن ، وحتى يوقن العقل الكهنوتي والعقلية البشرية كافة بأن الإله الحق ليس له صورة ولا شبه ولا جسم وإنما هو شيء مجرّد .. مجرّد كالحبّ ! .

كلا :

بل

« هو الحب ! »

« عنخ آتن »

عانقت العقل الإنساني في تمثله ! « عنخ آتن » نسائم الصوفية وأرسلت في أعطافه عَطِرًا عطر الحب – ونشوان تبدى الإله له المحبوب ، ولنفسه تبدّت نفسه فرأى نفسه المُحِبّ والمُحَبّ!

المُحِبّ ؟ ...

المحب قلب نبضاته اسم المحبوب – المحبّ روح أنفاسها استرواح لروح وأنفاس المحبوب – المحب ضعف ينادي بالوصل يرى في الوصل من المحب الرضا ونيل الرضا منه لديه هو المرتضى !

والمُحَبّ ؟ ...

والمحب لا يعرف الغضب فمن صفة الحب الرحمة والحنان والرعاية والغفران ... صفة الحب تنفي صفة البغض والإله الحب، فللكل حبّه حاو وغامر – أخطاء البشر لديه .. ضعف – والتقصير في عبادته يعتبره قصوراً ... من ثمّ نرى في هذا اللون من التفكير الديني صفات جديدة غير تلك التي رأيناها في اللاهوت الآمني ، فالإله **الإله الرحيم الحنون الغفور الأب!...**

إن الأب لا يعرف الغضب ولا يعرف البغض – بغض شعب وحب شعب ! .. الكل لديه سواسية والكل لديه سواء ، ولأن الكل لديه سواسية فهو ليس الحرب وإنما : **السلام !**

السلام لا يقبل إراقة الدماء لأن الكل أبناؤه –

لأنه :

« الأب السماوي » « عنخ آتن »

الأب السماوي مَنْ إليه ترتفع الصلوات صلاةً تناديه : «أبانا الذي في السماء » (٦)

«عنخ آتن» .

للكل ! للكلّ هو أب – لكل حيثما كان مكانه من الأرض !..
عالمي هو وللعالم قاطبة الإله ، ومن ثمّ فلترتفع الأناشيد على
أنغام المزامير في أنحاء الدنيا تُرجّع لـ « عنخ آتن » شعرًا ألحانه
تنطلق « للأب السماوي » في تمجيد تُسبح :

« على الزمن من الشام إلى كوش
وعلى صفحة مصر أنت العاطي لكلٍّ مكانه
ولحياته أنت المكوّن
المانح الكل ما يملك والعَالِمُ بأيامه كم ستكون » (٧)

« عنخ آتن »

فلتدوّى بالنغم أرجاء الإمبراطورية المصرية ولتجلجل في
آفاقها أصداءُ الهمس الداوي دويًا ! ..

فلتهب الرياح على ضفاف النيل إلى الأورنتس حتى
الفرات متغنية على أنغام المزامير تُعلم العالم بأن للعالم إلهًا
فردًا صمدًا واحدًا نحوه تتدفق القصائد من منابع الروح
الصافية، بصفائه في تلّ العمارنة تتغنّى :

« الأرض في يدك »

« عنخ آتن »

وتصفه بأنه : السلام !

من النيل حتى الفرات دوّت الرياح وخفقت في اصطفاق
الأمواج وعلى أنغام المزامير راحت الأناشيد تتغنى بوحدانية لا

شرك فيها خالصة ومطلقة وإله واحد للعالم قاطبة ... هو المُجرّد!..

وإلى « آتن » تحولّت العين البشرية من النيل حتى الفرات وحتى جنوب الوادي ترى فيها ألوهة جفت ، ونوراً كان للألوهة سرابا - لا ترى فيها الإله ولا محلا للعبادة وإنما من المجرّد طبقًا مرئيًا أو خيالا ومن متساقط نوره الخفيّ شعاعًا عبره ترتفع الصلاة إليه ، وفي الصلاة إليه تتّخذ قبلة !

في تاريخ الأديان قاطبة لم تُتّخذ في الصلاة إلى الإله قبِلْة أسمى مما إليه قد اتخذ عنخ آتن !

لا حجر ولا وثن ولا نصب ولا بناء أو بيت نحته أو أقامه وشاده الإنسان وإنما هذا الجرْم المتلألئ في الفضاء نوراً الطالع على الأرض بأسباب الحياة !

ومن الفرات حتى النيل وحتى جنوب الوادي تحولّت العين البشرية إلى الرمز الجديد ولكن سهّرها منه المعنى فالمعنى غير غامض عليها أنّى كانت وفي أي بقعة من هذه البقاع فالرمز إنما للسيطرة العالمية رمز لإله تدل على سيادته المُطْلقة هذه القُوَى المنبعثة من منبعها السماوي وهي تضع يدها فوق البشر ترعى شئون مَنْ على الأرض ... ليعلم العالم أنه إله واحد **تمتدّ** يداه راعية شئونه وبجانبه لا يقوم إله آخر ولا رب من الأرباب .

أجل ...

بـ « عنخ آتن » تضوّعت الأرجاء بأريج فلسفة تجرديّة

ووحدة وجود صوفية جرّدت الألوهة من الصفات البشرية، وبهذا التجريد طلع على الوجود الدين الصوفي فـ «عنخ آتن» ، متمثلا، بلغ العقل الإنساني فكرة الوحدانية المطلقة وبه بلغ التوحيد الصافي النقي - وبه تمثّل روحًا ليعطي معنى وليّبث روحًا في مادية التعبير - فيه نمت الروح الإنسانية ومن اللامجردات تغلغلت إلى المجرّدات فشفّ «الواحد» من كثافة المادية وتلاشى من المكان والزمان ليشعّ في الوجود روحًا !

روحًا غير مرئي ولكنه يتراءى في كل الوجود فوجوده الوجود وأنفاسه النفوس وحياته الحياة !

يقينًا ما بلغ العقل الإنساني التوحيد إلاّ على أكف السياسات المتدافعة - ما كان التوحيد إلا لأنه كان للسلطان السياسيُّ الوسيلة - وما بلغ التوحيد النقي لألوهة عنْصرها التجرّد والمطلقية من صفتها صفات إلاّ بأسباب الحلم الذي على جبين السياسة قد طاف وما صعد العقل الإنساني في سلم العلل الثانوية نحو العلّة العليا ، وما شفّت به الروح فاستشفت نسائم المعاني والمجردات ووجود اللامترائي في المترائي إلاّ بدفع السياسات المتدافعة.. ولكن ... التوحيد الأخناتنّى ... التوحيد النقيّ الصافي ، كَسْبٌ فاز به العقل النظريّ وليس حَدَثًا من أحداث المدركات الجَمَاعية فمنذ مطلع الفجر من تاريخ الوادي ونحو هذه القمة تسير بالعقل الإنساني الخطى حتى بلغها «عنخ آتن» ...

ولكن ! ..

لئن كان كهنوت عين شمس حتى هذا العهد راضياً لا يرى في الترنم باسم آتن إلا صوت الفصل بين آمن ورع ، فإنه الآن، يرى أن هذا الدين دين جديد يحطم لدينه بناءً ...

لتحطيم هذا البناء الأخناتني تكتّلت الفروع اللاهوتيّة المختلفة جموعًا فأنّى لدعوة كهذه الدعوة أن تقْبلَ من طوائف الكهنوت ورجال الدين الرسميّ فهؤلاء لا يرضيهم إلا أن تمتلك قبضتهم قبضة المُلْك، ولهم يؤازر من داناهم من ذوي الحِرَف الدينية كناسخي «كتاب الموتى» ورجال الكهانة المسرحيين الممثّلين لمأساة أوزير في عيد القيامة ، والملقنين الموتى ، والمُقْرئين من قارئي «الآي المقدس» في كل احتفال ديني واجتماعي وكل حفل سياسيّ ... !

ومن ثم فما كان لهذا الدين القالب الأوضاع رأساً على عقب أن يسود وطوائف الكهنوت تهوي عليه بمعاولها وتتّخذ من السياسة السلميّة في آسيا موادّ تشعل بها سخط القلب الجماعي على « عنخ آتن » ..

إن السيادة التى على جبين السياسة قد طافت منها الصور بوحدة دينية تصمد بها لزعزع الحدثان وأحْدَاث الأيام ، لم يتحقق منها إلا الجانب الروحيّ وأما الجانب السياسيّ فأخفق . أخفق لأن الإله المنتشر عليها ، صفته السلام وعنصره الحب ! ..

على المدركات الدنيوية في أحداثها كان إدراك هذا الدين الصوفي عسيرًا فتململت أرجاء الإمبراطورية ، ومتألبةً شقت عصا العصيان ، في الخارج وفي الداخل .. ومن ثمّ كان في الخارج توثُّب الشعوب التي قهرها السيف إلى الوثوب تنتهز النهزة للانقضاض على الصدْر الذي للكل قد اتسع منه الرحاب.. بل وامتدت في تسلّل. وبقدر هذا الامتداد ترَاجَع المدّ السياسي إلى مصر جذرًا ..

ومن هذه الأحداث اتخذت طوائف الكهنوت موادّ تحيك بها سخطها المتغلغل في الخفاء جهارة بها انْتشرت سُحُب التدمرّ الشعبي التي ثارت هوجاء لا تلوي على شيء تُذْري بفلسفةٍ جاءت بريقًا خاطفًا في آفاق عالم حالك عمرها كان عمر « عنخ آتن » !

سعيرًا اندلع الثأر الكهنوتيّ وثائرًا لم يتورّع ، فحرمة الموت لم يرع فنعته بعد موته :

الآثم !

الملْحِد ! ..

بل لا يقترب الزمن من عهد « حور مُحبٌ » نحو النهاية حتى كانت السجلات الرسمية الحكومية تُلَقِّب من يُلقبّه التاريخ الفكري أول صورة معروفة للفكر الإنساني :

« المجرم الكافر ! ... »

للكهنوت حاك السخط ، المتغلغل في الخفاء ، سحب التذمر الشعبي فثارت في ظروف غامضة مبهمة عواصف ثورة نفسية اندلع لهيبها دخانًا غيّب عنخ آتن ، وانحسر عن دين باسم « آتن » هاو ، ودين رسميّ باسم « آمن – رع » ! .

ومن جديد طلعت على الوادي أديان الشمس تتناحر ويرفّ من بينها دين رسمي عليه فُرِض يشترط الإيمان بألوهة الإله الفرد « آمن – رع » – عاد الدين الطيبيّ وعادت بعودته عقائده وفي الوعي البشريّ رجعت ، وبحور محبّ أعيدت جديدة عقيدة التجسّد الإلهي والحلول الإلهيّ في البشريّ ، ففي سجّل الزمن سجلّت على نفسها يد الكهنوت الطيبي هذه الكبوة وهي تنقش أن « حور محب » ، أيضًا ، ابن الإله آمن رع !

هوت المعاول السياسية تعمل هادمة فقوْضت لآتن صرحا ، ولآمن بدأت من جديد لمتناثر الأنقاض تجمع ولم يمض قرابة نصف قرن من الزمن حتى استردّ « آمن » مكانته واستعاد كهنوتة قوته ، وكأن عنخ آتن كان في جبين الزمن حلْمًا إلاّ من حلقات الفكر المُفَكِّر والدوائر الثقافية بل من الكليات الكهنوتية نفسها فبالفكرة الجديدة ، فكرة المطلق المجرد كان وعي الزمن قد تخصّب فقد أعقبت فترة الثورة فترات تفكير.. وبينما ظلّ العقل الجماعي لا يرى في الرمز والمرموز إلا شيئًا وأحدًا كان الكهنوت بسائر طوائفه وفروعه المختلفة ، رغم تشابكها

وتنافرها، قد بدأ ينظر إلى الألوهة كشيء فيما وراء الرمز - شيء وراء الشمس.. وما الشمس إلا رمز ، وما الرمز إلا محض صورة للحقيقة - الغلاف المغلّف لمحتجب الجوهر - المظهر الخارجي الذي تظهر به ألوهة مُطْلَق فَرِدْ ! ...

أجل ...

بالفرد المطلق ترك عنخ آتن أثرًا فإن فكرة استغلال الفكرة سياسيًا لآمن قد رأى فيها الكهنوت الطيبيّ وسيلة من أهمّ الوسائل للاستغلال السياسي وسيلة فعالة تحمي «آمن» وسلطانًا من مستقبل قد يكون كالماضي عابسًا فالاعتلاء «بآمن» إلى الوحدانية المطلقة إعلاء « لآمن » ، وهدف يثبّت به لدينه سلطانًا من ثمّ فلينطلق المؤذنون من على الأبراج مرة أخرى يؤذنون في ترْديد لما تُسجّله سِجلات العهد، عهد الرَعَامِسَة ، وسجلات الرعامسة بأن :

ليس إله عنخ آتن الإله الأحد وإنما « آمن » هوْ

« **الإله الأحد** » !

آمن :

هو الإله الفَرْد هو الإله الحيّ !

الإله الحيّ « آمن » اسمان لمسمىّ واحد وأقبلت ألوهته القديمة بصورة جديدة فلم يعد الإله إلهًا سيدًا وإنما غدا إلها أحدًا فردًا وحيًا أبى الكهنوت الطيبيّ إلا أن يُسيّجه بسياج

الأزلية الفردية فتدفقت ، في أوائل الأسرة التاسعة عشرة، القصائد تُقصدُه والأناشيد تنشده :

« لم يأت إلى الوجود إله قبله ، ومعه لم يكن إله سواه»

ولتتجنّب أية دعوة بها قد يأتي الكهنوت الشمسيّ في المستقبل ، تقول كهانته إنه :

هو رب طيبة الذي ظهر على صفحة الماء ، وعليها ، لإيجاد الوجود ، رفّت منه الروح ...

قول يجري على أنغام النشيد منشداً قدسيّ نصوص :

« ظهرت أولا على وجه الماء لتتمكّن من بداية يا آمن ..

ظهر على عرشه حسبما أوحى به قلبه - إلها واحداً أحداً ليس له أم سمّته ولا والد أنجبه - ولا أحد يعرف طبيعته الخفيّة...

إن الإله قد فطر نفسه ولكن صورته غير معروفة.. شمس السماء أشعّتها من محياه !

وإنه :

« الأب المقدّس الذي أتى بنفسه إلى الوجود ...
عظيم القوة ولا شبيه له آخر ... الواحد الجبّار
خفيّ الشكل ... ذو الصُوَر العدّة ... ربُّ الجميع » !

تعابير حديثة وتعبيرات عن « آمن » جديدة لم تك له لدى القدامى قديماً.. فالصورة منه غير معروفة وشمس السماء لم

تعد هي هو وهو هي وإنما غدت أشعّة محيّاه وهذه تعبيرات مستمدّة من التفكير الأخناتني الذي حاربه نفس هذا التفكير الكهنوتي ! ...

ولكن ...

إلى جانب هذه التعبيرات لم يستطع الكهنوت التحرّر كامل التحرّر من صبِغة تفكيره الماديّ ، فإلى جانب هذه التعابير تأتي تعابير أخرى هي الهُوِي من المثَالية الفكرية إلى الكثافة المادية اللاهوتية التي كانت للألوهة في هذا الوادي قديماً.. فإن « آمن»، وإن يك الخفيّ اللامترائي في المترائي وصورته غير معروفة وأشعّة الشمس من نور محياه ، فإن صفاته ليست كالصفات التي بها نعته « عنخ آتن » فليس هو الحبّ ، ولا هو الرحمة ، ولا صفة من صفات الحب والرحمة به تلحق ، وإنما ... إنّما هو « الجبّار » !

الجبّار الذي سيعيد لمصر المدّ الإمبراطوري للسيادة العالمية هو الراعي لـ « رع - موسى الثاني » ، الصاعد إلى العرش حوالي هذا العام « ١٣٠٠ ق : م » ، والذي واصل قويًا شنّ الغارات على سوريا محاولا ترميم ما قد تصدّع من شامخ سياسي البناء - هو الراعي له الذي يعاونه في معاركه وحروبه وغزواته ، فإنما « آمن » :

« رجل حرب » !

أجل ...

إنه الجبّار الذي :

« تهتز الجبال من قمتها ساعة غضبه ! ..

والأرض تزلزل حينما يموج ثائره ! ... وكل كائن يرتعد منه فزعًا ..

إنه الربّ

رب الجميع من لا أم له ولا أب ... مقامه السماء والرعد صوته ... يمدّ يده لمن يحبّه ، **يحرق أعداءه بالنار** » !

خليط من ألوان متنافرة جاءت ألوهة « آمن » القديمة جديدة ، وفيها تلاقت ألوان القِدَم بالباهت منها والواضح فيها، فكما كان « آمن » قديمًا «رجل حرب» أبرزته من جديد جديدًا «رجل حرب» واستجابت للظرف، ثمّ وعلى هذه الأوضاع امتدت فصوّرته مُحبًا للدم !

إن « آمن » يطرب لإراقة دماء أعدائه ولمرآها يستمتع ، استمتاعه بدماء الضحايا التي تقدّم له قرابينَ ، وبما منها إليه على المذبح المُوقد يتصاعد من الروائح مُحرقات !

هُوِيّ من آفاق المثالية والقيَم العلْيا إلى حضيض الغرائز بها قد أتت هذه التصريحات الجديدة كما سجّلتها وجرت بها الأقلام اللاهوتية في هذا العهد الذي إلى جانب أهميته في

التاريخ الديني له أيضًا أهمية من الناحية الأدبية ، ففيه قد نُسِخ الأدب القديم ، وإلى جانب الجديد فيما عرفه العهد من مدارس كان يُدَرَّس .

أجل ...

هُوِيّ من الآفاق الروحية إلى المادية القاتمة الجافة الخشنة ... ومترنحًا في وهْدتها انساب الصوت الكهنوتي في أرجاء الوادي أصداءً تسجّل انحدار « الواحد الأحد » هذا الانحدار ، وطلوعه من جديد ، رغم تلقيبه بالخفيّ الشكل والصورة اللامعروفة ، على صورة الإنسان وشبهه ومستويا على عرش! ...

قَبِلَ الإدراك الجماعي هذا اللون من الألوهة فمنه قد أرضيت الغرائز أن يتصف الإله بالصفات التي تدركها منه المدارك ويفهمها منه الفَهْم ويعقلها منه العقل - قطّ لم يجد غضاضة في الإيمان بألوهة يأتي الوصف عنها أن الإله « رجل حرب » ويستمتع برائحة الدخان المتصاعد من القرابين محْرقات!

بهذا اللون من التفكير الدينيّ لوحدانية تصبغها أقتم ألوان المادية ، حشدت سجلات الأسرة التاسعة عشرة نصوصًا خلال حكم « رع موسى الثاني » الذي طوى حكمه فترة من الزمن طويلة تقرب من سبعين عامًا خلالها أعاد لمصر سلطانها

السياسي في الخارج فعاد إلى مصر البريق الخاطف الذي جاء إليها بسيول المرتزقة من أهل التجارة وطالبي العمل يترعون الأسواق منها من جديد ، وحتى طيبة من الدلْتا حيث كان يعيش وحيث جعل من «تانيس» مدينة عظيمة إليها يقبل الناس من الغادين للوادي والرائحين عنه عبر ذلك الطريق المطروق منذ فجر التاريخ ... وبينما كان العمال من العبريين يُشيِّدون له «الرعمسيوم» و « البرتوم » ، كانت الأقلام اللاهوتية تدعم صرح هذا الدين الذي يطالعنا من ثنايا تلك النصوص المُدَرَّسة في مدارس ذلك العهد وبالأخص في تلك المدرسة اللاهوتية الملحقة بمعبد «الرعمسيوم» حيث إلى جانب الأدب الجديد دُرِّس الأدب القديم وطلعت على الوجود به أساطير القُدامى كقصص دينية سيِّجها القِدَم فسيُجت بسياج القدسية ! ..

أجل ...

عاد دين «آمن» دينًا عبادته الشمس فجاءت من جديد أديان الشمس تتناحر ! .. عادت أديان الشمس وبعودتها عاد «أوزير» ولكن عن ذي قبل عاد قويًا - عاد يكرر للإنسان في هذه الدولة ما قد عرفه في الدولة القديمة... عاد يقول له نفس المعنى القديم بلهجة جديدة إنك أيها الإنسان مكوَّن من :

« خات » أو جسم ماديّ

و « با » أو روح حيوانية .

و « آخ » أو نفس .

ثم .. إن لك إلى جانب ذلك شخصية مستقلة :

« كا » أو القرين « أب » أو عقل

«سِخِم» أو قوة حيوية .

ثم تحوّل له مُعلِّما

يُدْفن الجسم حتى « يوم الحَشْر » وأما الروح والنفس فتزوران بين الفينة والفينة ما ألفته هنا من صحب ومكان .

ولكن !

« الكا » لا تعيش إلاّ على ما يُقدّم لها من قرابين بجانب القبر ، تقدم لها بها رحمة .

وهكذا حتى «يوم المَعَاد » ونصيب الكل خلود إمّا في جنة أو في نار ... إن الخلود لكل إنسان وهذا لم يعد وقفًا على الملك بل إرثًا مشاعًا به يتمتّع كل فرد في الدولة ولكن مُحتّم على أتباع «أوزير» التحنيط ، على غرار «أوزير» ، واتباع كلّ الشعائر والمراسيم التى أقيمت له .

أثر من هذه العقيدة أن نرى فن التحنيط قد بلغ أوجه في عهد الأسرة الثامنة عشرة وأن نرى الصيغَ الجنائزية قد أخذت مظهرًا أروع عن ذي قبل ، وأجزاء من ملفّات البردي لـ «كتاب الموتى» تُوضع مع الأكفان في هذا العهد ، العهد الطيبي الذي

نرى « قصة أوزير » فيه تتشكّل، تبعًا للمجتمع الجديد ، بصورة جديـدة رسـمتها يد مجهولة على حجر مقدس [1] تُصور لنا :

«السورة الثانية لقصة أوزير»

إن « أُوزير » حَكم الأرض فـأترعـهـا خـيـرًا وعـدلا فنال الرضـا الإلـهيّ وبذلك اشـتـعل صـدر أخـيـه « ست » حـسـدًا فقتله!...

وبجـانب الجـثة جلست « إيزي » في حنان تنتحب ، فـرقّ لألمها قلب «رع» فأرسل من يتولّى الطقوس الجنازيّة لأوزير ...
جَمَعَ العِظام وألصق القِطَع الممـزّقـة ثم أدرج الجـثّة في لفائف التحنيط وضربت «إيزي» الهواء بجناحيها فتحرّك «أوزير» وقام حيًا يستهلُ الحياة الجديدة الخالدة التى أضحى بها ملكًا للموتى في عالم الخلود .

وحملت «إيزي» من «أوزير» بعد عودته إلى الحياة الجديدة فـهربت بجنينها إلى شمال الدلتا، وهناك وضعت «حور» وربّته في الخفاء ... وكبر «حور» واشتدّ ساعده فكان أول شيء إليه اتجه الثأر لأبيه ... وتغلّب «حور» على «ست» ، وذهبت به «إيزي» إلى محكمة الأرباب ... وهناك

نازعه « ست » في نسبه الشرعيّ إلى أُوزير قائلا : إن أمه قد حملت به بعد موت أُوزير !

وعُقدت المحكمة الإلهية وحَكم العدل الإلـهي بأن « حور »

ابن شرعي لأوزير .. وأعطس ملك أبيه فجلس على عرش مصر المُوحَّدة الشمال بالجنوب ، ونحوه تدفقت القصائد وارتفع صوت الوادي بقصة هذا الحدَث نغمًا ينشد :

« لقد ثأر ابن إيزى لأبيه فصار اسمه علَمًا مرفوعًا ...

ما أعظم ما شمل الأرضيين من السلام .. إن الشر ليهرب وإن الإثم لينأى قُضي الأمر واستقرّ عند سيّده العدل .

ليفرح قلبك يا « ون - نفر » فإن « ابن إيزي » قد لبس التاج .

لقد نطق بذلك رع وكتبه « تحوت » ! ..

كتب القلم الإلهي على اللّوح الأمر ، فكان لابدّ له أن يكون!

بالعناصر الجديدة تطلع هذه القصة القديمة ، أبرزها هروب « إيزي » بـ « حور » وتربية « حور » في الدلتا ومنازعته النسب الشرعيّ ! ..

إلى هذه الصورة تطوّرت أسطورة مَلِكْ المَوتى ،الروح الخَيْرِ مَنْ بيده أعمار الناس ، فالعمر لأمر أوزير رهين أمر ، والوادي لأوزير مملكة والنيل لأوزير بُحيرة ماؤها ببركته مُبارك وبتقديسه مُقدّس ..

أجل ...

إلى هذه الصورة تطوّرت في غير تحوّل عن الجوهر الأسطورة الأوزيرية بعناصر جديدة بها جاءت وقَبِلَتها عقلية هذا

العهد وبها آمنت مذهبًا إلى جانب الدين الرسميّ للإله الفرد « آمن رع » ، الإله الذي بلغ دينه أوجّه في عهد الأسرة التاسعة عشرة ، العهد الذي فيه نشأت المُوسويّة ، ومن ثمّ فأهم العهود التاريخيّة في تاريخ الدين القديم ! ..

إلى هذا العصر يطوي الفكر لجج الأزمان على مطيّة المعاول الأثريّة فينتشر له كما كان .. كان ككلّ العصور عصرًا متعدّد النواحي.. والمناحي والميول - مُخضّبا بشتى الألوان من الأفكار والعقائد والأوهام - فيه صافي الفِكَر وفيه واهي الأوهام، وفيه صحيح وسقيم العقائد والمعتقدات ...

ألوان في تنافر تتلاقى وإلينا تأتي بصورة الظلّ فيها أوهامه ، والنور فيها الإله النور الذي عاد فعاد دينه رسميًا ينتظمه كهنوت نظّم نفسه إلى درجات خمس أولها « أوّاب » وثانيها « الأب المقدّس » ثم ثالثها « نبيٌّ » يتدرّج في درجة النبوّة من الثالثة إلى الثانية استعدادًا للدرجة الأولى التي إذا ما بلغها كان على استعداد لتلقي « هابط الوحي » !

ولكن ! ...

لن يكون نبيًا إليه يُوحى وإلى الناس يخرج ليقول : كلمني الإله ولي قال ... ما لم تلق باسمه شهرة السِحْر !

إن الإله يؤيد « نبيّه » بمعجزات : السِحْر ! ..

أجل ...

حكَم « الوَحْي » مـصـر القـديمة ... وسَحَرهـا « السِحْر »!
للحكم الإلهي كـان أبدًا الاحـتكام ... فلم يكن المصـري في كل طبقاته الاجـتماعـية ليُقدِم على إنجاز أمر مـا لم إلى المشـورة الإلهية يعود عن طريق أخذ الرأي من شفتيّ « رجل الإله » الذي يأتيه الوحي عن طريق حالات وأحـوال أولهـا « المنام » وآخـرها «الكلام » ...

كم دوّت هياكل معابد الوادي بصوت هابط الوحي ؟ !

كم ارتجّت المحـارب وارتجّ القلب للصـوت الصـادر من شفتيّ رجال الإله ترجيعًا لصوت الرب الإله ؟ !

أجل ...

لقد دوّت هياكل معابد « رع » حيث الحجر المقدّس « بن – بن » وبالرنين تجاويت معابد « فتاح » و «آمن رع» بأصوات لم يتطرّق إلى ذهن الخُشَّع إلاّ أنها رجع صدى صوت الإله . !

إلى الذهن الجـمـاعي قطّ لم يتطرّق شك في أمـر الوحي الهابط وذلك في كل المراحل التاريخيّة للوادي ، وفي كل المراحل التاريخية كانت نفس الطرق التي استعملت في كل المعابد واحدة ومماثلة تنتـهي بقـول كلّمني الإله ولي قـال ... غـافل العـقل الجماعي عن أن « النبي » سواء أكان لـ «رع»، أم لـ «آمن رع» نبيًا إنما السياسي القلب الديني القالب، الذي تقلّب في درجات

النبوة لتقبض يده بكلمة « قال الإله » على ناصية **الأمر**... ومن ومنذا الذي لا يستطيع الائتمار بأمر الإله ؟ !

أجل ...

فكرة النبوّة وهابط الوحي فكرة قِدَم الإنسان قديمة وعاها منه الوعي منذ قام يُسجّل في وعي الزمن وعيه للزمن فإن « ساحر القبيلة » الذي حولته الحضارة إلى « كاهن » تدرّجت به مراتب الكهنوت حتى النبُوّة ، لم يتحوّل وإنما قد تَطَوّر ... في أعماقه البذور القديمة تتفرع عن أعمال يأتيها لا تتوفّر للمدارك الجمَاعيّة إدراكها ومن ثمّ فإليه تنقاد في تبتّل وخشوع الجماعات ! ..

أجل ...

لقد تطوّر العقل الإنساني من ساحر إلى كاهن ، وفي درجات الكهنوت تطوّر إلى «نبي» ، فالنبوّة وتلقّي الوحي هي آخر درجات الكهانة ، إذا ما بلغها صحّ له أن يستعدّ لتلقي الوحي فيكون نبيًا بيد أنه مازال الساحر...ما تغيّرت منه السَجيّة منذ كان للقبيلة ساحرًا عنه للدولة كاهنًا .. كانت قبضته على ناصية القبيلة باسم السِحْر تقبض ومازالت قبضته كاهنًا باسم السِحْر أيضًا على قبضة الدولة تقبض ! ... لقد سَحَر « السِحْر» الدنيا القديمة بيدأن قطّ لم يسحرها كل هذا السِحْر إلا في هذا العهد ، عهد الأسرة التاسعة عشرة ، عهد «رع موسى الثاني» ، ففيه كان السِحْر عِلْم العصر !

أجل ...

عِلْم العصر كان « السِحْر » وكان عنصرًا أساسيًا جوهريًا للكهانة ، والزعامة تُعْقَد لِمَن عُدّ قادرًا على إتيانه .. أثر من هذا الأثر أن نرى « خمواس » ، الابن الرابع لرع موسى الثاني ، يرتفع إلى مكانة ولاية العهد وتمهيدًا لاعتلائه العرش يحكم البلاد إلى جانب أبيه ربع قرن كامل من الزمن فيه طبّقت شهرته ، كساحر ، الآفاق قبل أن تطويه راحة الزمن أميرًا وتنشره « ساحرًا أكبر » ظلّ حتى الإمبراطورية الرومانيّة اسمه في آفاق الدنيا يُردَّد !

أجل ...

حَكم « الوحي » مصر القديمة وسحرها « السِحْر » كما في كل عهودها ولكن بالأخصّ في هذا العهد ، العهد الطيبيّ ، فقد بلغ الأوج في عهد « رع موسى الثاني » من ولع بالبناء وإلى بناء المعابد الجنائزية والإلهية انصرف .. جمّل الوادي ونثر على صفحته التماثيل، وبيد العُمّال من بني إسرائيل بنى «الرعمسيوم» و « البثيوم » ، وبنى المعابد الإلهية لتؤدي فيها شعائر الدين الرسمي للإله الفرد « آمن رع » هذه المعابد التي يطالعنا في داخلها، «قدس الأقداس» أو المكان الذي يخرج منه رجل الإله يقول كلمني الإله ولي قال .. كما أن في داخل هذه المعابد حيث «يتكلم الإله» تطالعنا المظلّة والتابوت الذهبيّ

وأحسنه ما كان مصنوعًا من خشب السنْط ، والأواني الذهبية والنحاسية الخاصة بطقوس العبادة فدين «آمن رع» دين تستلزم طقوسه هذه الأواني فالدين بين الأديان ماديّ الصبغة ماديّ التعبير فماديّ النسكْ وماديّ الشعائر والطقوس !

ماديّ يُقدِّم القرابين من اللحم مُريقًا منها الدم.. فالإله الفرد « رجل حرب » يحب الدماء!

الإله يحبّ تقديم المُحْرقات قرابين لينال منها الرائحة ، ويحبّ إشعال الشحم منها على موائد القرابين ! ..

هذا هو الدين الرسميّ للوادي لشعب يمتاز بالتدين وتُميزه التقوى حتى استعبدته الطقوس فحصر فيها اهتمامه وعن الروحيّات انصرف إلى الطهارة الجسديّة والصيَغْ والتلاوة، ويقف كهنوته في تقشّف يستعمل أفخر الأطياب ، يلهيه إلى جانب الطقوس تركيب زيت « المسحة المقدسة » لمسح الملوك ، هذه المسحة التى كانت تتألف من خمسة تركيبات يدخل فيها «قصب الذريرة» والسليخة «القرمة الصينية» والمرّ والزيت ! ..

ولكن ...

إلى جانب الاعتقاد العقلي بالدين الرسميّ والاعتقاد القلبيّ بالمذهب الأُوزيري يجيء لون جديد إليه التفت العصر وبه اصطبغ حينما التفت ووضع في قمته « الأدب » فقد عرف هذا العصر « الأدب » ومن ألوانه أترعته ألوان مزيج فيها الجِدّة والقِدَم .. تطالعنا من المدارس التي على صفحة الوادي انتشرت

في هذا العهد حيث فيها كان يُعلَّم ، إلى جانب الأدب الجديد ، الأدب القديم ، وحيث من بينها تبرز في سجل التاريخ المدرسة اللاهوتية الكبرى التي كانت تابعة لمعبد «الرعمسيوم»...

أجل ... على الشاطئ الغربيّ لطيبة حيث كانت هذه المدرسة اللاهوتية أو الجامعة الدينية قائمة تقوم أطلال تلالها آثار ما قد كان فيها يُدرَّس .

على البرديّ في صفحات من علَّم في هذه المدرسة ومن تعلّم نجد أن المواد التي كانت فيها تُدرّس آداب الدولة القديمة وآداب الدولة الوُسْطى - ففي هذا العصر نُسخت عن البرديات القديمة آداب العصور السابقة كما سُجلت على برديات جديدة ما كانت تُردّده الألسن عن القدامى من قصص وما عنهم كانت ترويه من روايات .

تطالعنا ألوان الأدب القديم ، أدب الدولة القديمة التي كانت تُدرّس في هذه المدرسة تمامًا كما ندرس في العربية الآن «المعلَّقات» ... صافي اللغة غير معتكر لا يشوبه ما يشوب أدب هذه الدولة الحديثة من فطريّ الأسلوب والتعبير ومن ثمّ نراه يُلْحَق بالشرح وبالتفسير ويُكْتَب بلهجة عامية ، ومنها ... من هذه القصص المتداولة العامية الشائعة على الألسن من آثار الدولة القديمة :

« قصة خوفو والسَحَرة » (٩). تُلقي هذه القصّة أضواءها

على طبيعة التفكير الشائع في هذا العصر، فالقصّة تجري بأن باني الهرم الأول قد طلب أن يُقصّ عليه بعض ما أتاه مَنْ أوتي «السحر » من معجزات ، فيأتي إليه بأولاده الثلاثة ، ويبدأ الحديث أكبرهم «خفرع» فيقصّ قصة عن « خَرْحَب أو بانر»، والحرخب لقب لا يطلق إلاّ على من كان في الجماعة الدينية من العلماء ، العالم بأسرار الكتب المقدّسة ومن ثمّ فساحر ... فنصغي إلى قصة عهدها عهد « نبقة » ونسمع :

« معجزة انقلاب التمساح شمعًا » اسنقلاب التمساح شمعًا تقبلها العقلية الجماعية في هذا العصر ، وتصدقها كمعجزة حدثت قديمًا تصديقها ! « **معجزة تحويل العصا إلى حيّة** » كان انقلاب العصا إلى حيّة معجزة المعجزات ! كانت هذه « المعجزة » تُمارس في مصر القديمة ، فقد كان «سالساحر » يدخل فيلقي بعصاه ويأخذ في التمتمة فتتحرك العصا وتنقلب حيّة تسعى ...

كان هذا المشهد السِحْرّي يأخذ بألباب اللبّ الجماعي ، لا يدري أن عصا الساحر لم تكن إلاّ ذلك النوع من الحيّات الذي يدفن نفسه في باطن الأرض على أعماق كبيرة ويمكث مرحلة على ذلك قد تمتدّ من الزمن شهورًا وهذا الموت المؤقت توجد عليه في مملكة الحيوان أمثلة كثيرة في الأسماك والحيوانات الثلجيّة وغيرها إلى جانب هذه الحيّات الدفّانة BEulus

واسـمـهـا العلمي بالتـحـديد gongylophis Thebaieus فيبحث عنها الممارس ويخرجها ، بطريقة الرفاعيّة ، ثمّ يؤثر عليها تأثيرًا مغناطيسيًا شديدًا بنفس طرق ترويض الحيوان وهي بطبيعة تكوينها سريعة التأثر فتتخشّب تخشبًا تامًا ، فيعمد إلى ألوان من الطلاء يطليها مُقلّدا شكل العصا ويحملها معه ، ويمكن ردّها إلى حالتها الطبيعية وبالعكس في أي وقت دعت إليه الضرورة (٣) .

هذا هو العمل السّحْرِيّ لمعجزة تحويل العصا إلى حيَّة وهذه هي حقيقته العلمية في ضوء العلم الحديث ! ..

ولكن ...

العقل الجماعي لم يدرك هذا التفسير فأجمع على أنها خارق معجزة ! .. ثُمّ ينهض « بأفرع » ويأتي بقصة أخرى عهدها عهد « سنفرو » ومحورها « حرخب زازا - م - عنخ» فنصغي إلى : « **معجزة انشقاق الماء** » .

أمام « سنفْرو » أتى « زازا » بهذه المعجزة فقد وقف وأمرَّ يده على الماء آمرًا الماء بالانشقاق فافترع النهر وانشقت المياه !

ثم ينهض « حورددف » لنصغي إلى :

« **معجزة رد الحياة إلى الطير** »

حتى الآن قد قُصّ عليكم ما يُقال إنه قد وقع في عهد السلف وسلف السلف وليس من شيء يُؤيدها ويثبها كحقيقة

وقد تكون محض رواية ووهم حاكه الاختلاق ... ولكن لدينا في هذا العهد وحيّ بيننا مازال « حَرْخب دِدِي » من يتبعه السبع الضاري دون تردّد ، ومن له المقدرة على إعادة الحياة ...

وتستطرد القصّة وبعد تفاصيل طويلة تقول : أن جِيء بدِدِي وجيء إليه بطير ، ففصل الرأس عن الجسد ثم نادى الطير فعاد يسعى حيًا !

أجل ...

هذه بعض القصص التي كانت شائعة في هذا العصر وإليها منه ترهف المسامع يعتبرها معجزات ! ...

وإلى جانب هذه القصة من قصص الدولة القديمة تأتي من قصص الدولة الوُسطى : «قصة سي - نوح»

من طبيعة مغايرة للقصص الأولى تأتي هذه القصة ليس فيها إعجاز ومعجزات وإنما تتحدث عن « سي - نوح » الذي عاش في الدولة الوسطى في عهد « أمنهات » «١٩٦٥ - ١٩٩٥ ق.م» فتجعل منه بطلا من أبطال المشاق والسفر الطويل (١١) حتى أصبح اسمه علمًا على الاغتراب وامتطاء مطية الصعاب وركوب مركب سفينته الأمواج !

وإلى جانب هذه القصص من الدولة القديمة والدولة الوُسطى تأتي قصص من نفس الدولة الحديثة لهذا العهد ومن بينها قصة كانت من أحسن القصص لديهم ، ما سمعها سامع

إلا وكان يؤسف على الأخ الأصغر فالقصة : « قصة الأخوين[١٢]».

كان « انبو » الأخ الأكبر - وكان « بطة » الأخ الأصغر وكان جميلا وفتيًا .. كفله أخوه وأحسن مثواه حتى كان يوم ذهب فيه إلى الحقل ، وكان أن أرسل « أنبو » بأخيه الأصغر إلى الدار ليأتيه ببعض البذور ، فذهب .. ولكن !

حدث ما لم يخطر بالبال ، فهناك وجد زوجة أخيه التي ما رأته وحيدًا إلاّ وأقبلت عليه ، وراسفة في قيد الغرائز راودته عن نفسها فأفلت منها صائحًا : معاذ اللّه ! إنه كأبي وقد أحسن مثواي .. أية فاحشة هذه التي عليها تحرضين ؟ !

وتستطرد القصة فتقول إنه لما عاد الأخ الأكبر إلى داره مساءً ، لقيت الزوجة سيدها بالباب قائلة : ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلاّ أن يُقتل ! واللّه لئن لم تقتله لأقتلنّ نفسي فلقد انتهك لك حُرمة وعن نفسي راودني !

وهنا تستطرد القصة بحديث طويل ، فالقصة طويلة مملّة تستغرق صفحات ، تحدث عمّا قد لا قاه « بطة » من العذاب ومن الوحدة القانطة المملة كما لاقى من التشريد صنوفًا حتى رقّ له قلب الإله فأمر فخُلقت له امرأة لتؤنسه ... يصيح فيها الشباب !

أجل ...

هكذا تجري القصة وتختتم أحداثها بين مساء يمسي وصباح يصبح حتى يكون صباح يوم سادس فتظهر الحقيقة

ويتصافي الأخوان ويجازي اللّه الأخ الأصغر بعرش فيصبح عزيز مصر !

وإلى جانب هذه القصص قصص أخرى أهمها :

« قصة نهاية العالم »

هذه قصة سادت العصور الثلاثة ، شبيهة كل الشبه بقصة « الطوفان البابلي » التي تقص كيف أن الرب قد ندم على خلقه الإنسان لما رأى من الشر في قلبه فأراد إبادته من الأرض فأرسل عليه الدمار ولكن لما رأى الرب كل هذا الدمار ندم على فعله الشر بالإنسان !

هذه القصة الصبيانية من عمل العقل الإنساني صبيًا ، فهذا خيال نراه تحت أضواء علم النفس عبث صبية !خيال صبي تخيَّل الإله يغضب وينزل الشر ، ثم يعود فيندم على ما أنزل من شر !

ولكن حفَّت هذه القصة بالقدسية وحفَّها من القلب الجماعي الإيمان ، فقد اهتمّ المصريّ القديم بأنواع الأدب القصصيّ ووضعت القصة لتناسب ميول العامة - إلى أن بجانب هذه القصص وسواها مما كان يُدرّس في مدارس الأسرة التاسعة عشرة، حول سنة ١٣٠٠ ق.م. ومن ضمنها هذه الجامعة اللاهوتية ، ألوان أخرى من الأدب النصائحي

والتأملي والتهذيبي - ألوان نراها في آفاق العصر مصادرها شتَّى .

من الأسرة الثالثة حول سنة ٢٩٨٠ ق.م، إلى الأسرة التاسعة عشرة حول سنة ١٣٠٠ ق . م يرسل « كاجمنه » وصاياه في لون من الأدب النصائحيّ ، وصوته في أرجاء الوادي يتجاوب أصداؤه عنه تردد أن « كاجمنه » يقول :

« هذا كتابي إليكم فاعلموا بما فيه كأنكم تسمعونه مني اتَّبعوا الصدق والطهر وإياكم والجهل والخمر (١٣) ! »

ومن الأسرة الخامسة حول سنة ٢٧٠٠ ق . م يأتي صوت « حبيب اللّه فتاح - حتب »، وحبيب اللّه لقب من ألقاب الامتياز في الكهانة معروف ، عبر صفحات كتابه « سفر الأمثال » مدويًّا في أرجاء الأسرة التاسعة عشرة بلون من الأدب التهذيبي ، في مدارسها تدرّس حِكَمه كأحكام تعطى للسلوك ، وأمثاله تضرب كأمثال للأخلاق ، تقول : قال «حبيب اللّه فتاح حتبْ» إن :

« احرص على الصدق فإنّه لجميل وإن قيمته لخالدة ، والذي يخطّي نواميسه يُعَاقَب ... إن الصدق أمان للضال كالطريق المستقيم ..

أجل ... إن الفحش يُكسب الثروة ولكن لا شيء خالد كالاستقامة ! استمعوا إليَّ إن اللّه يحب من يسمع (١٤) »

ومن العهد الإقطاعي ، بين الدولة القديمة والدولة الوُسْطى،

إلى الدولة الحديثة يأتي لون آخر من الأدب القديم له نفس الأهمية ، وُجد في الصفحات التي تركتها تلك المدارس المنتشرة التي تحملنا إلى عهدها آثارها فتهبّ من روح ذلك العصر وطبيعة تفكيره وخلقه هبّات على أجنحة صوت في أرجائه يُدوّي إن هذه « وصايا دوّاف (١٥) » .

لقد أوصى « دُوّاف » ابنه « حخيتي » قائلا :

« لا تكن مُفتريا فلقد رأيت أن المُفْتري إنمّا على نفسه يَفْتَري » !

ومن الأسرة العاشرة يطالعنا في الدولة الحديثة أيضًا لون جديد في « وصايا ختى » لـ «مري كارع» إذ يطالعنا فيها مُسَجِّلا قانون « المثْل بالمثْل » وفي وعي الزمن يُعاد ويُكرّر أن الإنسان قد خُلق على صورة الإله فممّا فيها :

«إن اللّه لا تخفى عليه خافية ... إنّه يعلم مَنْ المتمرّد ومَنْ الظالم ومَنْ المظلوم ... ولكن اللّه يطلب الخطيئة بالدمّ ! فكن عادلا وتقيا إن اللّه بالسرائر عليم وافعل الشيء الذي يجب أن يكون لك لأن اللّه سيكافئك بالمثْل !

إن الإنسان صورة اللّه وشبهه .. لقد خلق له الأنعام والنعَم والأرض والهواء ولكنه أيضًا شديد العقاب ! »

بجانب هذه الألوان هناك ألوان أخرى يطالعنا بها هذا العصر كقصص تقصّ سير القدامى والتنبؤات التي كانت

ترددها الألسن ثم تكتب وتنسخ منها الصور ثم تدخل في مادة التدريس في المدارس فمنها ما به قد مررنا من نبوءة « أبويّ » وإنذاره الجالس على العرش بأن النهر سيستحيل دما [١٦] .

ولكن ...

هذه القصص عن التنبؤات يطالعنا من ورائها شيء آخر .. يطالعنا لون نرى فيه كيف كانت بعض القصص تحاك وتُنسب أقوالها إلى القدامى .. كيف كانت الأقاصيص عن القدامى تقصّ وأسماؤها تلحق ألوان من المعجزات والنبوءات .. مثلا «تنبؤات نفر رع [١٧]» فقد كتبت هذه البرديّة في الدولة الحديثة في عهد «تحوت موسى الثالث» وكانت من القطع المحبوبة في عهد الدولة الحديثة ، فعن المجد التليد تجري قائلة : إن قبل أن تبني الأهرامات... نادى « سنفرو » إليه « حرخب نفر رع » وسأله عمّا تطالعه به مطالع الأيام ؟ فقال إني لأرى في الأفق البعيد الآسيويين يقتحمون حرمة البلاد فأراها في أبأس حالات البؤس.. وستنقلب الأوضاع ..ولكن أرى ملكًا يأتي من الجنوب باسم أميني « تقصير أمنحوتب » ابن نوبية ووليد مصر العليا .. سيتلقى جبينه التاج الأبيض والأحمر .. سيوحّد الأرضين وينشر السلام فطوبى لكم يا أبناء ذلك الزمن فلقد **أتى «ابن الإنسان»** .

تلك كانت روح العصر تطالعنا من آداب ما سجلّته

ونسخته النصوص وما نُسخَت النصوص إلاّ لأن للكلمة المكتوبة طابع قدسيّة ولا سيّما إذا كان بالهيروغليفيةّ فعند ذلك يُصاحبها أمر « لا تدر ظهرك لكلام اللّه ! »

أجل ...

إن « كلام اللّه » هو ما كان يُعرْف بالنصوص الهيروغليفية ومن ثمَّ كانت نصوصاً مقدسّة وما النصوص المقدسة إلاّ تلك التي سطرتها يد الكهنوت ثم غلفتها القرون بأغلفة القدَم . ومن هذه النصوص المقدسّة يطالعنا شيء مما كان يُدرّس في تلك الجامعة اللآهوتية الملحقة بالرعمسيوم :

« الخمر ! إن الخمر لمنكر.. إنهّا تبعث بالروح إلى الفناء »

الخمر ؟

ولكن ... الخمر ، في المذهب الأوزيريّ ، للمتقين والأبرار في الجنّة الجزاء ؟ !

أيسأل سائل : كيف يكون الباعث بالروح إلى الفناء ، جزاء للروح في الآخرة ؟؟

لو طاف ببال أحدهم هذا السؤال لهانت في ناظريه عقيدة مذهبيّة تجعل أُمّ الفواحش جزاء في الجنّة لمن عزف عنها وكان في دنياه تقيّاً .

ولكن..!

من ثنايا البرديّات وصفائح القبور وتلال الأطلال تهبّ روح العصر عليلة تُحدّث :

إن الدين كان الدين وإن التفكير كان التفكير في هذا

العهد الذي بدأت يد الزمن فيه من جديد تتحرك فتطوي « رع موسى الثاني » . وتنشر « منفتاح الأول » فتنشر له عهدًا لا يكاد ينتشر حتى نلمح في مسير الأيام ضمير الزمن ، فيده بخضاب الغروب لآفاق الوادي بدأت تُخضّب .

هذه رياح الحدثان عاصفة في الخارج تهّب ... دويّها ينساب في الوادي ترجيعًا لألسن متباينة لشعوب مختلفة وقبائل من الحضر والبدو من بينها القبيلة العبريّة التي عملت بعض طوائفها فيما قد شاد « رع موسى الثاني » من أبنية وفي بناء الرعمسيوم .. هذه القبيلة العبرية تشق عصا الطاعة وتتألّب ، تألب من في الخارج ..

من سجلات طيبة بين أطلال معبد « منفتاح » ينساب صوت التاريخ يُحَدّث بأن «منفتاح» قد أخمد ثورة الثائرين - انتصر على ليبيا - حطْم كنعان - أسر عسقلان - قيّد جذير - ودمّر إسرائيل !

ولكن .. عن سنة الكون المحتومة بغروب بعد شروق لم يحُلْ انتصار الوادي على الثائرين في الخارج عن أن يبدأ المجد السياسي للوادي في التهاوي ، فهذه أسرة تقفو أسرة وكأن عهودها ساعات ما قبل الغروب ! .. ساعات عصر كان للوادي إعصارًا اعتصره وأثار في أجوائه ألوانًا من الانقباض فاجتاحت الوادي حالة من حالات الانقباض النفسي ... وفي

حالة الانقباض النفسي لا يعمل العقل بقدر ما يعمل القلب ! يهجع العقل ويكف عن تلمّسه النور في المعرفة فالقلب قد بادر بالعمل يتلمّس الراحة ينشدها في إيمان الآباء ولو غلّف هذا الإيمان الوهم ، ومن ثمّ نرى اشتداد الميل إلى ملك الخلود ليطالعنا :

المذهب الأوزيري وأديان الشمس في مشرق المغيب

على « بردية آني » من الأسرة الثانية والعشرين نرى «أوزير » في مشرق المغيب كما كانت في مشرق الشروق « ملك الموتى » و « السيّد الشهيد » .. كلّ ما ينص به المذهب الأوزيري إنمّا على هذه البردية منصوص ، فعليها مسجلة الآية المائة والخامسة والعشرون من ذلك الكتاب الذي ألفته تتابع الآيات فكان سِفرًا تحدر على الأجيال بالقدسية محفوفًا وسِجلا للعقل يُبيّن مراحل تفكيره في عهود امتدّت من الأسرة الأولى إلى الأسرات المتعاقبة... ومراحل هذا التطوّر أمامنا ، منشورة على جدران المتحف المصري عبر الصفحات من هذا الكتاب ، « كتاب الموتى » أو « سفر الشريعة الأوزيرية » .

من أمام هذه الصفحات نمر فتمرّ من أمامنا الأجيال وفي انتشار تُطْوَى بعد الأزمان الأزمان ، وفي تفرّع تتشابك فروع التفكير في تعقّد عجيب ! .. ألوان متنافرة لعقائد متنافرة تأتي بها ، في كتاب واحد ، آيات لا يمكن الجمع بينها في آن .

ولكن ...

الشيء الوحيد المستخلص من هذا الاستعراض هو أن العقل الجماعي في هذه الفترة من الزمن قد تشابكت في غير تصادم في أفقه عقائد متنافرة الألوان فَلَمْ يلتفت إلى هذا التنافر والخلط العجيب في الآي وإنّما لها قدّس وبها تبارك وعلى صفائح القبور ولفائف الأكفان وجدران المعابد راحت في غمرة الإيمان يده لها تنقش .. وهكذا راح خلف عن سلف يأخذها ، فأخذها على علاّتها عليلة وعلى سقمها سقيمه ، غافيًا عن حقيقة العقيدة وأسبابها وأنها لم تك إلاّ أداة أدّت للسياسة أغراض السيادة وغاياتها - غافلا عنها عقيدة بها جاء العقل الإنساني يافعًا ثم تطوّر فتركها .. تركها للعقل الجماعي الذي تشبّث بها وبها آمن كحقيقة خالدة حتى لديه أضحى جفوها للإيمان جفوًا !

أجل ...

إن في هذا الكتاب ما يدعو إلى البحث والاستيعاب وشيء من التركيز الفكريّ، والتمحيص دون تحيّز إلى عقيدة دون عقيدة..

ولكن ! ..

عن حقيقْتها عقائد كانت في يد قادة الجماعات للجماعات قيدًا غفا العقل الجماعي وعلى الإيمان بها انصرف فانصرف عن الالتفات إلاّ إلى ما يطرب منها منه الحواس - حسبه أن

الآيات تُتلى نغما وتُرتّل ترتيلا وأن المقرئين يُشنّفون منه المسامع ويُنغْمون النصوص أنغامًا ، مختارين من الآي ما يناسب كل مناسبة ... ومن ثمّ يطغى ساحر النغم على المعنى ! ..

صفة للعقل الجماعي تتجلّى في عدم المقدرة على أن ينظر نظرة جامعة شاملة لعقائده التي يُفني ذاته في الدفاع عنها وتلهبه الحمية الدينية لأي دين وجد نفسه في أحضانه وليدًا ! يجنّ به جنون التعصّب لأي دين وجد نفسه له وريثًا فيراه دون سائر الأديان الدين الحق .. لقد وجد آباءهُ يجلُون ويقدّسون فلم يسألهم ولم يتساءل لم أجلّوا ولم قدسوا ... وجدهم يجلون فأجلّ ! .. وجدهم يقدّسون .. فقدّس !

الحال كانت الحال ويد الزمن تُحوِّل الوادي من حال إلى حال وفي سجلّ التاريخ تمتد وتسطر اختتامًا لتاريخ المجد السياسي للوادي ليأتينا في زفر الغروب صوت الزمن متهافتًا يُحدّث :

لقد طافت على الوادي من الأديان أديان اتخذت محورًا عبادة الإله « الخالق » كلها رسخت في الوعي الزمني كهذا الدين القائم حتى المغيب باسم «آمن» في تشبث بـ «رع» وكالعقيدة الأوزيرية التي تهبّ منها النسائم قوية ونسائم الغروب عليلة تهبّ ويلهبها تتوهّج الآفاق وأفق الوادي بغسق الغروب يخضبّ تهمس : إنها كالنيل !

كالنيل الجاري الجارف جرى « أُوزير » جارفًا العقائد والمعتقدات – ضمّ أطراف الوادي من سَحَرِه حتى الغروب بوحدة عقيدية .

أجل ...

لم يكن للوادي وحدة دينية ، وقصر لاهوته في كل فروعه عن أن يكون له منهج ديني مرسوم ، ولكن لئن لم تك له هذه الوحدة الدينية فإنّه من الواضح اليقينيٍّ الذي لاشك فيه كانت له وحدة عقيدية مذهبية وشريعة محورها أوزير – فإذا كان قد كان للوادي دين رسمي يقوم بقيام إله المقاطعة السائدة ويهوى بهويّةٍ ، فإنّه قد كان له بأوزير دين قلبي اجترف الأديان الرسمية وسادها سيادة أبت أن يغرب بغروب شمس المجد السياسي للوادي لها شمس .

كلا !

لم يغرب بغروب الغروب « عذرا » أو « عذير » أو « أوزير» بل في أفق غروب سياسي أخذت غلائله على الوادي تنسدل ولأطرافه تغلّ بأغلال ليبية فنوبية ففارسية فإغريقية فرومانية.. كان أوزير يمد ظلّه على أمجاد المجد القديم . ولكن ! في لباس جديد ... فنحن نرى «أُوزير» في هذه الفترة من تاريخ الغروب السياسي بصورة جديدة استغرق تصويرها فترة زمنية امتدت من القرن الثامن إلى الخامس ق . م – الفترة التي اغترفت

الأيدي الدخيلة فيها ماء النيل ورشفته منها الشفاه رضابا راحت بخمره ثملة تتحدّث عنه ، وبأيدي هومير وبلوتارك وديودور الصقلي تسطّر أساطير واديه ... ففي هذه الفترة من الزمن نرى القصة الأوزيرية قد تطورت تقول :

« إنه لما وُلِد أُوزيريس ارتفع صوت من معبد آمن يُبشِّر العالم بأن : قد جاء «السيد».

وأن قد دوى المعبد بهتاف :

«إن أوزيريس الملك العظيم والمحسن للكون قد وُلد» !

« لما ولِّي أُوزيريس عرش مصر لم يك الوادي بعد متحضرًا وإنما كان على الحالة الهمجيّة فأرشده أوزوريس إلى الصلاح وعلّمه الزرع والضرع وعلمته إيزيس صنع الخبز .. ومنذ ذلك الوقت كفّ أهل الوادي عن افتراس بعضهم بعضًا وانتقلوا من طور الهمجية إلى طور الحضارة .. وعَصر أوزوريس العنب وصنع خمرًا رشف منها أول كأس .. وصنع من الشعير جُعة ونهل منها أول كوبة .. وعلّم أوزوريس الوادي ووضع له القوانين ، وعاونه في عمله تحوت الذي استنبط الكتابة وبثّ العلوم والفنون وحبّب إلى الوادي الموسيقى وعلمه علم الفلك، فحسد له أخوه النِعَم وقتله !

وعندما قَتَل «ست» «أوزوريس» ألقاه في اليمّ في تابوت وحمله الموج إلى فينيقيا ثم قذفه إلى الشاطئ من أمام «ببلوس» وما تكاد الأرض تتلقاه حتى أنبت اللّه من فوقه شجرة !

ثم تستطرد القصة استطرادها القديم عن بعث أوزير وعودته إلى الحياة وتُعيد في وعي الزمن ما قد سُطر قديماً وتتمثّل من جديد الرواية القديمة جديدة تجري على صفحة المُخيِّلة الإنسانية منها الأحداث تُصوّر أوزير يقوم بعد الموت حياً بجسده كما من قبل قد كان - وتصوّر إيزي تهرب بجنينها من مكان إلى مكان - وتصوّر ميلاد المخلِّص الذي حنت عليه البقرة وأرضعته بين أحراش وقشّ الدلتا !

أجل ... لم يغرب بغروب الغروب السياسي أوزير وإنما أمدّ ظله على الألوان الدخيلة التي مرت بها على الوادي من السياسات الاستعمارية فترات ...

لهذه الفترات من التاريخ أهمية في تاريخ التفكير الديني وبالأخص الفترة الأخيرة منها التي تبدأ بالاحتلال الفارسي وعهد هذا الاحتلال حديث لنا نسبياً وعن فجر الوادي نسبياً بعيد فقد احتلّ الفرس الوادي في منتصف القرن السابع ق . م بسواعد جنود سخّرت من أيونيا وسائر بقاع الإغريق ، ومن الإغريق الذين طاب لهم منذ ذاك العهد في هذا الوادي المقام فاستقروا فيه قبل أن يحتلوه ... ففي هذه الفترة من الزمن وتحت الظل الفارسي ، حنّ القلب المصري إلى الماضي حتى ألهبه جنون الذكرى فأقبل على الماضي يروي غلته بابتعاثه!... بدأت نفحات الماضي من الأدب القديم والمتوسط والحديث تعبق

في آفاق الجو الجديد ، وفي تضوّع يطوف في أرجائه من غبير الماضي عبير وكأن الوعي الزمني خشي على التراث الإنساني من النسيان فاستذكره بإعادة ذكراه ..

ولكن ...

أثمله عبير القدم فغَالى ! في تلهّف احتضن القلب المصري القديم والجديد ومن ثمّ يطالعنا التفكير الديني للوادي في ظلال الحكم الفارسيّ مزيجًا وخليطًا واللون منه مغاير للون القديم ..

أجل ... ظلّ الإله الواحد ، الأحد الفرد ، وظلّت هاتان الكهانتان ، اللتان تمثلان في سجل التاريخ اللاهوتي في هذا الوادي قطبيّ التفكير الإلهي والدينيّ ، تتنازعان الفردية لإله كل منهما تراه كائنًا في اسم ما قد عرفت في فجر التاريخ من إله وعلى الموضوع تتناحران في صُوَرَ الشكليات .. بيد أن أهمّ ما يطالعنا في هذه الفترة الزمنية من تاريخ التفكير الدينيّ لون ألوهة تطلع في غَسَق الغروب ابتعثها من سحيق القدم اللاهوت الشمسيّ غداة أحاطت طوائفه، « قمبيز » صاعدًا العرش تومئ إليه :

إن عليه أن يُقَدِّم فروض الولاء لربّة منذ سَحَر التاريخ يعرفها الوادي باسم : «نيث»

إن « نيث » ربة عذراء أتت بـ « رع » الإله الشمس فهي أم الإله ! (١٨).

إلى بعث جديد لنفسه عن طريق عبادة « نيث » هدف

اللاهوت الشمسي من جديد وإلى هدف سياديّ ينحصر في امتلاك ناصية الوادي سياسيًا عن طريق إرضاء الكهنوت القائم واكتسابه إليه هدف قمبين .. فأية مغبّة ينالها ، وأي ضرر يضيره من أن يُصْلح للربة العذراء، أم الإله ، متهدم معبد ؟

وانسابت من معبد أم الإله » الصلاة في أسماع الوادي بما فيه من عناصر دخيلة تصيب منه القلب بنغم يتضوّع من أريجه عبير الطهر - نغمٌ عَبر الأكف المرفوعة والجفون المُسبلة ينساب من الشفاه همسًا يرجّ الأرجاء رجًا في ابتهال وتضرّع ورجاء مناديًا :

« السيدة العذراء أم الإله » !

أجل ... إلى «السيدة العذراء أم الإله» تحوّل انتباه الوادي بمن فيه من عناصر دخيلة في هذه الفترة الزمنية الزاخرة بالإغريق وإليها ظلّ في انتباه متحوّلا والزمن المرتحل به يرتحل ، وظلال بعد ظلال على الوادي يترامى حتى ترامى عليه ظلال العصر الهيليني الروماني وغربت تمامًا للوادي شمس مجده السياسي ..

مُتهافتة في غسق المغيب تهبُّ نسائم الغروب مُحدثِة بأن العقل الإنساني وهو يرتقي مدارج العمر في هذا لوادي قد توّهم!

توَهم إلهًا على شبهه الإنساني فخلع عليه من صفاته البشرية صفات ! صوّر الإله رجلا فطبعه بالعنصرية وقيَّده بالجسدية !

وأسكن الإله السماء فجعله في أسر المكان والزمان !

وأجلس الإله على عرش ، وأقام العرش على الماء ، فأكد لنفســه وهمًا على وهم ! وأراق للإله الدم وإليه رفع القرابين وأطلق دخانها رائحة سرور محرقات !

وتوّهم ! .. توهّم ربة عذراء جعلها أم الإله وامتزجت في غسق الغروب منها الصورة بالربّة الأخرى حاملة الطفل الإلهي « حور » الواقفة على هلال : « إيزي » !

وتوّهم ! ... توهّم فانسل الإله وجعل له ولدًا يطلع في أفق الغروب السياسي تحت ألوان متنافرة الصفات فهو :

« الروحُ القُدُس »

و« الكلمة »

و« ابن الإله »

بل فيه تتلاقى صورة «الشهيد» «والمُخلِّص» الذي قام من بين الموتى حيًا ، وحيًا ليحكم ، رفعه اللّه إلى السماء !

أجل ... هذه كانت الحال ويد الزمن تُحوّل الوادي من حال إلى حال وبالألوان الليبيّة فالنوبيّة فالفارسيّة فالإغريقية فالرومانية تخضّب منه بغسق الغروب الآفاق ...

ولكن ... بين هذه الألوان من فـجـر الليل يقف « أوزير » أوضح منه عن ذي قبل فعقيدته بلسم للقلب المكلوم بما تمنحه من طمـأنينة إلى حياة ثانية أفضل من هذه الحياة ليس فيها من متاعبها متاعب ولا من أتراحـها أتراح ، حياة طبيعتها فرح في جنّة أرضها ذهب ...

وبجانب أوزير تقف « إيزي » يستنشر ظلّها ويمتزج منها الشبه بالسيدة العذراء أم الإله... فضاء الغروب قماش ترتسم عليه صورتها واقفة على هلال بين إطار من نجم الغروب، حاملة الطفل الإلهي حورس ، روح اللّه ، الكلمة ، المخلّص البشر المانح البشريّة الخلود ! ...

أوهام ! ... توّهمها العقل الإنساني واعتبرها حقائق وهو بالتفكير الإلهي يُسجل له تفكيراً فكوّنت ما قد كان من أديان .. أوهام جاءت بدين بعد دين وبمذهب انحصرت عقيدته في أوهام البعث الجسدي في قيامة ويوم حشر وميزان يُنصب وجنة ونار وكتاب في يمين وكتاب في شمال ... أديان ! .. أديان بها دان العقل في هذا الوادي مذ صابحه الفجر حتى ماساه الغروب!

الهوامش

١ ـ الأدب المصري القديم ، سليم حسن.

٢ ـ المرجع السابق نفسه .

The Religion of Egypt By Sayce_ ٣

٤ ـ سليم حسن ، الأدب المصري القديم

Oxyerhynchus Paparus_ ٥

The life and time of Akhnaton By A.Weigall _ ٦

Stroy of the Pharoahs By.J.Baikie _ ٧

٨ ـ في متحف اللوفر.

westcar Papyrus _ ٩

١٠ ـ الإيحاء الذاتي – رمزي مفتاح.

"Notes on the story of Si-Nouhe By A.gradinier _ ١١

Literature of Ancient Egypt ByA. Erman

"Papyrus d'rbinier British Museuem_ ١٢

١٣ ـ الحضارة القديمة، احمد كامل (باشا).

Papyrus Prisse_ ١٤

Papyrus Sallier & Anastasi_ ١٥

Leyden Museum_ ١٦

Papyrus Gardinier_ ١٧

"Egypt By W. Budge_ ١٨



لم يجرؤ كاتب أن يكون حرًا، مثلما كانت أبكار السقاف في كتاباتها الغزيرة والمتنوعة، سواء أكان ذلك في المعتقدات أم الأديان أم الفلسفات القديمة والحديثة، حتى إنها كانت في طليعة أقرانها من المثقفين طوال القرن الماضي. فهي لم تكن من أصحاب المناورة مع الثقافة أو الراسخ من الأفكار أو المعتقدات، فرفضت أن تكون مندمجة ضمن تيار ثقافي أو سياسي، يعرقل حريتها، فتوحدت مع انفرادها وأفكارها مما أعطاها الحرية كاملة في مناقشة أية فكرة مهما كان مدى حساسيتها أو اصطدامها مع الراسخ والمستقر، فخرجت لنا بكتابها العمدة «نحو آفاق أوسع - المراحل التطورية للإنسان» الذي ننشره كاملا لأول مرة في العربية، خاصة الجزء الثالث منه الذي لم ير النور، لتكون أبكار السقاف وكتاباتها هديتنا إلى القرن الحادي والعشرين.

العصور
الجديدة